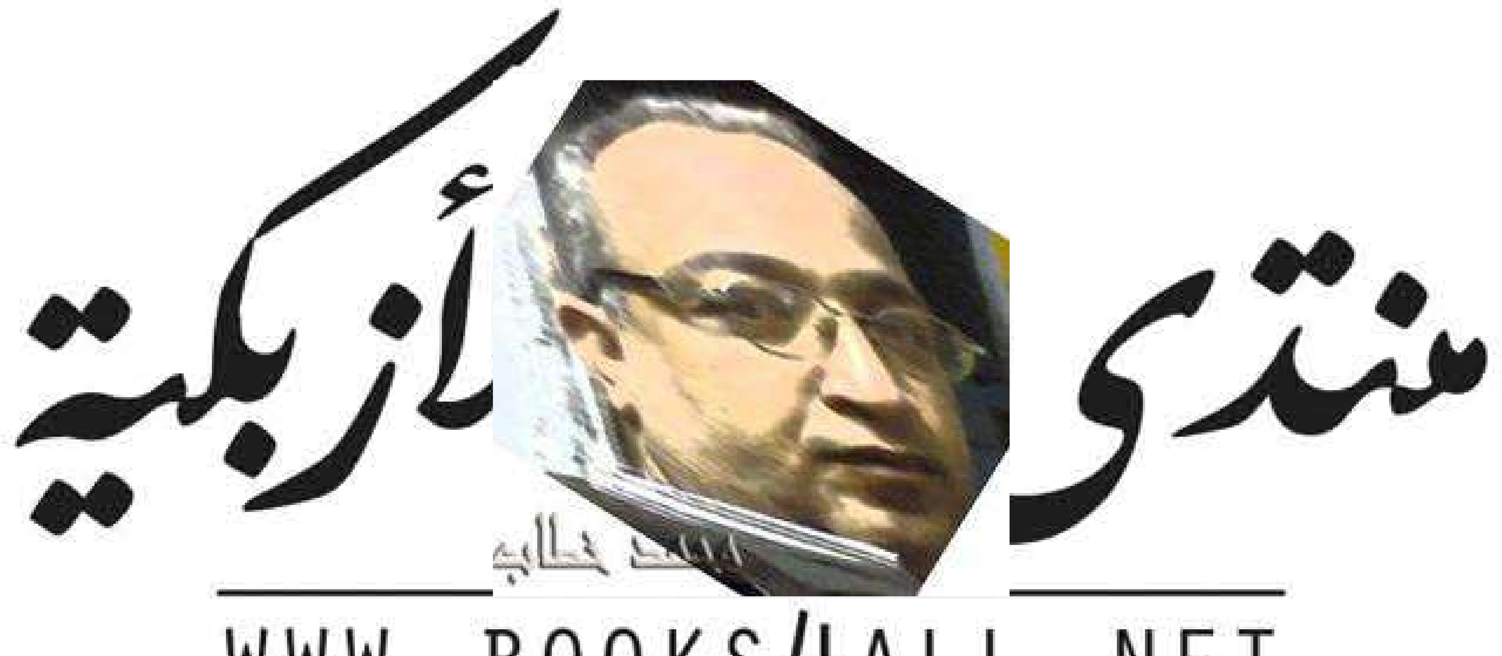

كتب ثقافية
النضال الشعبى
ضد الحملة الفرنسية
بقلم مقدم/ محمد فرج


منتدى أزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

كتب ثقافية

النضال الشعبى

ضد الحملة الفرنسية

بقلم

مقدم / محمد فرج

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم : محمد عطا

ان فترة الحملة الفرنسية على مصر تعد من الفترات التى ظهر فيها معدن المصريين الحقيقى واصالتهم فى الحرية ، وفى تمسكهم باستقلالهم ، والحفاظ على تقاليدهم وتراثهم ، هى فترة مجيدة فى كفاح الشعب المصرى وصموده واستبساله ، ومن دواعى الأسف أن التاريخ الذى قرأناه لم يكشف عن هذا الكفاح وعن استمراره ، وعن دوافعه ، وعن شموله وعمقه ، ولم يكن ذلك الا لأن التاريخ الذى قرأناه كان تاريخا استعماريا أو مستقى من مصادر استعمارية ولم يكن لنا من متنفس فى هذه الفترة الا تاريخ الجبرتى . هذا المؤرخ العظيم الذى عرف التاريخ على أنه تاريخ كفاح شعوب لا تاريخ أمراء وسلاطين وملوك فقد أرخ لكفاح الشعب فى هذه الفترة كما ينبغى أن يؤرخ . ولعله المرجع الأصيل الوحيد لنضال شعبنا حين الحملة الفرنسية .

وقد يقول قائل اذا كان الامر كذلك فلم يكتب الكاتبون المحدثون عن نضال الشعب فى هذه الفترة ولم لا نكتفى بما كتبه الجبرتى ؟

والرد على هذا التساؤل يسير اذ أن الجبرتى لم يتناول هذه الفترة تناولا مستقلا فى تاريخه ، على أنه فى تناوله لها قد كان هواه بعض الشىء مع العثمانيين ، هذا الى أن لغته فى الاعم الأغلب لغة سقيمة محشوة بكثير من الالفاظ التركية وخاصة فى الناحية الحربية .

على أن المؤرخ المحدث لهذه الفترة دقيق فى تبويبه وتصنيفه . لايكاد يعتمد على مصدر واحد (المصدر المصرى أو التركى أو العربى) بل عليه أن يستعرض ما كتبه الأجانب عن هذه الفترة ، وهذا العرض لوجهات النظر المختلفة يؤدى به الى سلامة التحليل والتعليل واصدار الأحكام .

وهذا ما فعله المقدم محمد فرج فى هذا المؤلف الذى اعتمد فيه على مصادر مختلفة شرقية وغربية ، وحلل الموقف العسكرى للحملة تحليلا عميقا وقد مكنته دراسته العسكرية من هذا التحليل .

ولا شك أننا فى حاضرنا نحتاج الى اصدار مثل هذه المؤلفات التى تعرض أمجاد شعبنا ، وتصحح لنا التاريخ القومى ، وتهيىء لناشئتنا السبيل القويم للاطلاع على هذه الامجاد والتزود من هذا النضال الرائع حتى يشبوا على كفاح كل معتد غاصب ، وحتى يؤمنوا بأن أجدادهم قد ضحوا تضحيات غالية ، فلقد أحرقت دورهم ، وصودرت أملاكهم ،

وأسيلت دماؤهم على أرض مصر الطاهرة ، وعلى الرغم من كل أولئك فقد استهانوا بهذه التضحيات ومضوا فى كفاحهم الى نهاية الشوط ٠

لقد كان الفرنسيون فى مصر يعيشون فوق بركان ثائر ، لم يهدأ يوما ولم يخب لحظة ، وهذا هو الذى عجل بطردهم وعودتهم من حيث أتوا يجرون أذيال العــار والهزيمة على الرغم من أنهم كانوا فى ذلك الوقت فى أوج مجدهم الحربى ، ويقودهم قائدهم الكبير نابليون بونابرت ٠

ان المصريين لقنوا الفرنسيين درسا لن ينسوه ، هذا الدرس هو أن الشعوب الحية لا تخضع ولا تذل ولا تنام على الضيم ، وقد لقنوهم هـذا الدرس مع ما كانوا فيه من عنت ، وما عانوه من اضطهاد ، اضطهادالاتراك وصلف المماليك ، وجبروت الاقطاعيين ٠

ان هذه الحملة استنزفت الكثير من دمائهم وأقواتهم وأرواحهم ولكنهم كانوا كراما فى البذل لأنهم وضعوا نصب أعينهم تاريخا يسطر ، وأجيالا قابلة ستحكم على مدى كفاحهم ونضالهم ، ولأن الحرية تجرى فى عروقهم مع دمائهم ٠

وهـــذه الحملة كما سيرى القارىء قد فتقت آذانهـــم حتى أنشئوا المصـــانع الحربية التى زودتهم بالقنابل والمدافع والبنـــادق والأسلحة المختلفة، أنشئوها من العدم أومايشبه العدم فأثبتوا جدارتهم واستحقاقهم الحياة والخلود ٠

ولا شك أن من يقرأ هـذا السفر سيخرج منه وهـو فخور بهؤلاء الأبطال أبنـــاء بولاق والحسينية وباب الشعرية ، فخور بأبناء دمنهور والزقازيق والاسكندرية وكل بلد فى الوجه البحرى ، وكذلك سـيكون فخورا بأبناءالصعيد الذين استعصوا على أن تسيطر عليهم القوة الغاشمة، القوة الفرنسية المحتـلة فظلوا أحرارا لم تنلهم يد الطغيـان ، ولم تحتل أرضهم القوات الأجنبية الفرنسية ٠

وحسب هـذا السفر أن يوقظ فينا هـذا الاحساس ، وأن يشعرنا بالفخر نحو أجدادنا الأبطال ٠

محمد عطا

مقدمة المؤلف

قفزت الى ذهنى فكرة اعداد هذا الكتاب حين كنت أستمع الى الرئيس جمال عبد الناصر وهو يقدم لأعضاء المؤتمر الوطنى للقوى الشعبيه مشروع الميثاق الوطنى ٠٠٠ ولعل الفكرة قد احتلت مكانها فى ذهنى حينما تناول الرئيس جمال عبد الناصر بالحديث الجهاد البطولى للشعب المصرى خلال القرنين الماضيين ٠

ولقد سرحت بخاطرى خلال التاريخ فوجدت أن الشعب المصرى يحتل مكانا مرموقا بين شعوب العالم التى قامت تكافح وتناضل من أجل سيادتها وحريتها واستقلالها ، وأدركت من الحقائق التاريخية أن الشعب المصرى كان أكثر شعوب العالم تعرضا لمطامع الاستعمار والمستعمرين وأكثر هذه الشعوب مقاومة لها ٠

لقد جاء الى مصر مستعمرون من كل البلاد ، وطمعت فيها دول كثيرة ٠٠٠ جاءها الاتراك ٠٠٠ ثم الفرنسيون ٠٠٠ ثم الانجليز ٠٠٠ والشعب المصرى خلال القرنين الماضيين يواجه هؤلاء وهؤلاء ٠٠٠ لم تفل عزيمته ٠٠٠ لم تضعف روحه ٠٠٠ لم تلن قناته ٠٠٠ لم تتهدم معنوياته ٠٠٠ لم تتزعزع ثقته فى نفسه ٠٠٠ وانما ظل صامدا قويا عملاقا ٠٠٠ واجه هؤلاء جميعا بعنف ، وقضى على مطامعهم فى قوة ،ورفع راية بلاده عالية موفورة الكرامة مهيبة الجانب ٠

والشعب المصرى فى مراحل كفاحه المختلفة ، لقى الكثير من صنوف التعذيب والارهاب ، والتنكيل والتخريب ، وكان الطريق أمامه طويلا شاقا وعرا ، كثير الاشواك التى تدمى الأقدام ٠٠٠ ومع هذا ظل سائرا متقدما ، بذات العزيمه الجبارة ، والرغبة القوية ، والارادة الصادقة ٠٠٠ وكان فى جميع خطواته يبذل العرق والدم ، ويستمد من هزيمته قوة ، ويستخلص من الدم العرق الذى يتم به كفاحه ونضاله لم تزعجه كثرة الضحايا ، فقد كانت من وجهة نظره ثمنا بخسا يقدمه عن طيب خاطر ، من أجل حريته وسيادته واستقلاله ٠

جاءت الحملة الفرنسية الى مصر ومعها آمال كبيرة وأحلام عريضة وظن قادتها أن الشعب المصرى قليل الادراك والفهم وأن طريق احتلال مصر مفروش بالورود ، ولكن الشعب المصرى البطل وقف أمامهم وقفة بطولية وقاوم جحافلهم مقاومة تاريخية ، زلزل الارض تحت أقدامهم وهزأ بأعدادهم ومعداتهم ، ففشلت الحملة الفرنسية ودفنت آمالها مع أمواج البحر المتوسط تماما كما دفن أسطولها فى أبى قير ٠

وخرج الفرنسيون مهزومين مدحورين ، ثم تولى الشعب قيادة نفسه واعلن زعماؤه اختيار محمد على واليا على البلاد ، ··· وكان محمد على أول وال يعين بناء على رغبة شعبية··· وانحرف محمد على عن الطريق الوطنى ، وبدأ يرسم لنفسه سياسة توسعية بقصد انشاء امبراطورية تدين بالولاء له ··· واصطدمت آمال محمد على مع آمال الشعب ، وبدأ الشعب يخوض غمار معركه جديدة ضده ، ثم ضد أبنائه وأحفاده الذين تولوا حكم البلاد طبقا للنظام الوراثى الذى قررته الدول فى ذلك الوقت ، وانحرف أبناء محمد على جميعا ، وابتعدوا عن الشعب ، وبحثوا عن وسائل ترقية حياتهم وارضاء نزواتهم ، واهتموا بالمظهر والأبهة والعظمة ، وأهملوا شئون الرعية ، فانتشر الجهل والفقر والمرض ·

وابتدأ المارد الجبار يتحرك بعد أن أدرك النهاية المؤلمة التى يقوده اليها حكام أسرة محمد على ، وأحس هؤلاء الحكام بقوة المارد ، فبحثوا عن وسيلة توطد حكمهم وتثبت وجودهم وتؤكد سيادتهم ، ولم يجدوا أمامهم سوى الانجليز ، الذين كانوا منذ عهد نابليون يتطلعون الى مصر وينتظرون اللحظة التى يسيطرون فيها عليها ، ويجعلونها تحت حكمهم ، وفى دائرة نفوذهم ، وجاءتهم الفرصة حين ثارت المقاومة الشعبية ضد توفيق بقيادة أحمد عرابى ، واستغلوا هذه الفرصة الى أبعد حدود الاستغلال ، وجاءت أساطيلهم تهدد الشعب ، وتضرب مدنه وتعتدى على أراضيه ، وتنزل قواتها الى بره ، وتحتل البلاد كلها بحجة الدفاع عن مصالح الخديو ، الذى هدأت نفسه وارتاح خاطره وقبل أن يعيش تحت حماية أجنبية وأن يستمد وجوده وقدرته من جيش الاحتلال البريطانى ···

ولكن الشعب المصرى البطل صاحب التاريخ المجيد ، الذى زلزل الارض تحت أقدام الفرنسيين ، والذى طرد فريزر حين جاء بحملته يبغى احتلال بلاده ، صمم على أن ينال استقلاله وأن يعيش حرا وأن يظل دائما صاحب السيادة فوق أرضه ، وبدأ جهاده الوطنى ضد الانجليز ، وضد عملائهم الذين ارتكز عليهم الاستعمار فى داخل البلاد ·

وكانت مراحل طويلة من الكفاح الشعبى الخالد ، وكانت معارك كثيرة متواصلة ··· واستطاع المارد العربى ببطولة أبنائه واصرارهم وعزمهم وحماستهم واخلاصهم ووطنيتهم أن يهزم الاستعمار ، وأن يقضى على أعوانه ، وأن يخرج من معاركه كلها عملاقا قويا جبارا ، واقفا على قدميه ، يحكم نفسه بنفسه ، ويدير شئون نفسه على حسب رغبته وارادته ·

ولقد رأيت أن أؤرخ هذا الكفاح المجيد للشعب المصرى العظيم وأن أسهم فى ابراز نواحى الوطنية والبطولة فى مراحل كفاحه ، فعزمت على اخراج هذا الكتاب الذى يتناول قصة الكفاح خلال مائة وخمسين عاما وعلى وجه التحديد منذ أن بدأ نابليون ينفذ فكرته الاستعمارية فى احتلال مصر ، حتى قامت الثورة المصرية المباركة فى يوليو ١٩٥٢ ، وخلصت مصر من الاستعمار البريطانى ، وأعادت الى البلاد حريتها كاملة واستقلالها تاما غير منقوص ·

ولما كان حديث الكفاح الشعبى فى مصر يحتاج الى مؤلفات كثيرة فلقد رأيت أن أقسم الكتاب أجزاء ، يتناول كل جزء منها حقبة من تاريخ الكفاح الشعبى حتى أستطيع بذلك أن أعطى الموضوع حقه وأن يخرج بالصورة التى تتفق مع مجد الكفاح الشعبى فى مصر .

وها هو ذا الجزء الاول من الكتاب ، يؤرخ الكفاح الشعبى المصرى ضد الحملة الفرنسية ، وأرجو أن تتتابع الأجزاء ، وأن يجدها القارىء مكتملة بين يديه فى وقت قريب .

وغاية ما أرجوه هو أن يكون الله لى خير رفيق وأن يكتب لنا فيما نحن مقبلون عليه السداد والتوفيق ...

محمد فرج

الباب الأول
مصر والحملة الفرنسية

١ - مصر قبل الحملة الفرنسية
٢ - الاتجاه الى احتلال مصر
٣ - الحملة الفرنسية واحتلال مصر

- ١ -

مصر قبل الحملة الفرنسية

بانتهاء موقعة الريدانية ، التى تمثلت فى طرفين ، أحدهما السلطان العثمانى سليم الاول ، والآخر طومانباى نائب والى مصر السلطان الغورى الذى قتل فى معركة « مرج دابق » أمام جحافل السلطان العثمانى ٠٠٠ بانتهاء هذه المعركة ، أصبحت مصر ولاية عثمانية ، تابعة للسلطان العثمانى ، وظلت مصر منذ انتهاء هذه المعركة تحت الحكم العثمانى حتى جاء نابليون بونابرت بجيوشه فاحتلها ، وأبعدها الى حد ما (١٨ من أكتوبر ١٨٠١ عن سلطة الدول العثمانية ٠

وفى هذه الفترة (١٥١٧ ـ ١٧٩٨) عاشت مصر تقاسى فى حياتها الاجتماعية والسياسية ، فى ظل النظام العثمانى الذى وضعه السلطان سليم الأول ، ثم هذبه الى حد ما السلطان سليمان القانونى ، وكان من الواضح كما أكد التاريخ ، أن البلاد كانت تتنازع السلطة فيها ثلاث هيئات ٠٠٠

الوالى ٠٠٠ الذى كان يعينه السلطان ٠

رؤساء الجند ٠٠٠ وهم قواد الفرق التى كانت فى مصر ، وكانوا يشكلون فى مجموعهم ما يسمى بالديوان ٠

المماليك ٠٠٠ الذين كانوا يمثلون السلطة الثالثة فى البلاد ٠

كان من الواضح أن هذا النظام ، كان نظما فاشلا فقد تنازعت السلطة فى البلاد هذه الهيئات الثلاث ، وكانت كل هيئة تسعى الى تثبيت أقدامها ، وأدى هذا السعى الى التصادم بينها ، وأسفر هذا التصادم عن سيطرة المماليك على البلاد سيطرة جعلت المصريين يعيشون فى مذلة وبؤس ، لا يشعرون بحريتهم التى يعشقونها ولا بسيادتهم التى كانوا يأملون فيها ٠

وكانت جميع النظم التى فرضت على البلاد نظما فاسدة ذات أثر سيىء فى حالة البلاد السياسية والعمرانية والاجتماعية والاقتصادية والصحية والعلمية ، فقد عاش الشعب يرزح تحت نير العبودية وظلام الجهالة ، فقد فتكت به الامراض ، وأفقرته الضرائب المتعددة ، التى فرضت عليه ٠

وكانت البلاد تتشكل من أربع طوائف :

العلماء ورجال الشرع : وهؤلاء كانوا يتولون قيادة البلاد الفكرية وزعامتها الأدبية والسياسية .

طائفة الملاك والتجار : وهؤلاء كانوا يسكنون المدن ، وكان فيهم عدد قليل من الاغنياء .

طائفة الزارعين : وكانوا يشكلون الشطر الاكبر من الأمة ، يعيشون فى حالة يرثى لها من الجهل والفاقة ، وكانت زراعتهم فى تقهقر وتأخر ، كما أنهم كانوا أكثر استهدافا لمظالم الحكام ، وفداحة الضرائب التى تحرمهم ثمرة كدهم وتجعلهم فى حالة فقر مستمر .

طائفة الصناع : وهؤلاء كانوا من الطبقات الفقيرة يباشرون صناعات صغيرة غير تقدمية .

وكان الشعب فى مصر « مسلمين وأقباطا » ، يعيش فى ظل ظلم الحاكم وسوء الادارة ، واشترك الاثنان معا فى المشاعر والعواطف والرغبة فى التحرر والسيطرة . والتقيا عند آمال واحدة فى التخلص من المظالم التى تعرض لها الشعب وعاش فى ظلها .

وكانت مصرمقسمة من الوجهة الادارية الى ست عشرة مديرية يسمى كل منها اقليما (سنجقا) : تسعة منها فى الوجه البحرى ، والباقى فى مصر الوسطى ومصر العليا، وكان عدد السكان يبلغ ثلاثة ملايين ينقسمون الى حكام ومحكومين ، وواضح أن الحكام كانوا فئة المماليك الذين استبدوا بحكم البلاد ، وأن المحكومين كانوا الشعب المصرى مسلميه وأقباطه .

وكانت مصر فى (١٧٦٣) ـ أى فى الفترة السابقة للحملة الفرنسية تحت حكم واحد من المماليك ـ هو على بك الكبير ـ استطاع خلال الحرب التركية الروسية (١٧٦٣) أن يعلن استقلال مصر وخروجه عن طاعة السلطان ، وامتناعه عن دفع الخراج ومنع ورود الولاة العثمانيين ، وضرب النقود باسمه ، وجرد الجيوش ، وفتح الجزيرة العربية ، فنادى به شريف مكة « سلطان مصر وخاقان البحرين » ثم مد يده لمعاونة طاهر العمر للتخلص من سلطة السلطان العثمانى وبعث اليه محمد بك أبو الدهب الذى استطاعت الدولة العثمانية أن تتفق معه أن يتولى السلطة فى البلاد ، فعاد الى مصر واستطاع أن يقتل سيده ، وأن يتربع على كرسى الولاية حتى مات فى ١٧٧٥ فخلفه اثنان من المماليك هما مراد بك وابراهيم بك ، واستتب لهما الامر وظلا يحكمان البلاد معا حتى ١٧٩٨ حين جاءت الحملة الفرنسية الى مصر .

هذه هى الصورة التى كانت عليها مصر والتى كان عليها الشعب المصرى حين مرت البلاد بمرحلة جديدة فى حياتها ونعنى بها مرحلة قدوم الحملة الفرنسية الى مصر ، وبقائها بها فترة امتدت ثلاثة أعوام (٢ من يوليو ١٧٩٨ ـ ١٨ من أكتوبر ١٨٠١) .

- ٢ -

الاتجاه الى احتلال مصر

فكرة غزو مصر ...

يؤكد المؤرخون أن الحملة الفرنسية على مصر هى مرحلة من مراحل التسابق على الفتح والاستعمار بين انجلترا وفرنسا منذ القرن السابع عشر ، ولقد تطورت مراحل التسابق بين الدولتين تطورا كبيرا على أثر قيام الثورة الفرنسية ، فقد استطاعت جيوش فرنسا بقيادة نابليون بونابرت أن تخضع أوروبا وأن تنتصر فى القارة الاوروبية، فى حين ظلت انجلترا بحكم موقعها الجغرافى وسيادتها فى البحار، بمأمن من انتصارات نابليون ، ومن هنا اشتدت الرغبة فى القضاء على انجلترا وقهرها فى مختلف الميادين ، ومن هنا أيضا برزت فكرة احتلال مصر كخطوة أولى نحو احتلال الهند بقصد ضرب انجلترا فى مستعمراتها . طالما أنها شديدة المراس قوية الشكيمة وليس من اليسير مهاجمتها فى أرضها .

اختمرت فكرة غزو مصر فى ذهن نابليون، بعد أن تمت له السيطرة الكاملة على جميع أجزاء ايطاليا .

ولا عجب فى ذلك . فنابليون كانت له مطامع بعيدة المدى وكان واضحا أنه صاحب مستقبل كبير فى ميدان الفتح والغزو. كما أنه صاحب مستقبل كبير فى مجال السياسة والحكم . ولعله بعد أن استتب له الامر فى ايطاليا موطن يوليوس قيصر . وعلى مقربة من مقدونيا موطن الاسكندر الاكبر تاقت نفسه الى مجد كمجد هذين البطلين ، وتطلع حوله فلم يجد الا مصر . ذات العظمة القديمة والتاريخ المجيد ، فداعبه أمل كبير فى اقامة دولة شرقية عظيمة تكون قاعدة له يثب منها الى الشرق . ويرفع على أنقاض امبراطورية انجلترا علم الامبراطورية الفرنسية .

الاعداد لفكرة الغزو ...

أخذ نابليون يفكر فى الخروج بهذه الفكرة الى حيز التنفيذ فوجه غاية عنايته الى كل ما يمهد له هذا السبيل .ومن أجل هذا اتخذ الخطوات التالية :

(أ) استولى على أسطول جمهورية البندقيه لتتجمع فى يده قوة بحرية تواجه قوة انجلترا البحرية وتصمد أمامها ، ويستطيع بها أن يقضى على قوة انجلترا فى البحر المتوسط ،

وأن يجعل من هذا البحر بحيرة فرنسية كما جاء في مذكراته .

(ب) احتل « كورنو » بعض جزر البحر المتوسط لتكون قاعدة بحرية له ، يستمد منها أسطوله ما يحتاج اليه من مؤن وذخائر .

(ج) بعث الى حكومة الادارة في فرنسا — وهي الحكومة التي كانت تتولى الأمر فيها ، والتي ظلت قائمة حتى استبدل بها نابليون سنة ١٧٩٩ القنصلية — يقول «ان المواقع التي نحتلها على شواطىء البحر المتوسط تجعل لنا السيادة على هذا البحر ويجب علينا أن نرقب تطورات السلطة العثمانية التي أخذت تنهار دعائمها من كل جانب ، فعلينا اما أن نؤيدها ونمنع انحلالها ، أو نأخذ ما نستطيع من اسلابها ويمكننا أن نحرم انجلترا مزايا سيادتها في الاقيانوس الاعظم ، فاذا كانت نازعتنا طريق رأس الرجاء فلنتجاوز عنه ، ولنحتل مصر ، فيكون لنا فيها الطريق المؤدى الى الهند ، ويسهل علينا أن ننشىء بها مستعمرة من أجمل مستعمرات العالم . واذا أردنا أن نهاجم انجلترا فعلينا أن نهاجمها في مصر » .

(د) بدأ نابليون يعد جنوده لتقبل فكرته والايمان بها ولهذا أخذ يدلي اليهم بتصريحات تحمل أمله ويحدثهم بأحلامه ، فهو مثلا في باسانو (١٠ من مارس سنة ١٧٩٧) يخاطب جنده قائلا لهم « ان أعلام فرنسا تخفق لأول مرة على ضفاف الادرياتيك على مقربة من مقدونيا القديمة التي نبت فيها الاسكندر واتجه الى مصر ، **وأن مهمة كبيرة** تنتظركم » ، وهو أيضا يخاطب رجال الاسطول (سبتمبر ١٧٩٧) قائلا : « اننا عندما ننتهى من اخضاع القارة سنجتمع بكم لنحصل على حرية البحار ، وبدونكم لا نستطيع أن نحمل مجد فرنسا الا في مكان ضيق من القارة ، **أما بكم فسنجتاز البحار وننشر عظمة الوطن في البلاد النائية .**

(هـ) جمع نابليون جميع ما كتب عن الشرق وعن مصر ، كما جمع وثائق وزارة البحرية الخاصة بمصر وانكب على دراستها دراسة عميقة ، وأصبحت مصر موضع دراسته وأبحاثه ومطالعاته، حتى نضجت فكرة احتلالها تمام النضوج في ذهنه وفكره وقلبه .

وجهتا نظر نابليون وحكومة الادارة ...

وعندما عاد نابليون الى فرنسا كان همه الاكبر بل الأول ، اقناع حكومة الادارة بالموافقة على ما رسمه من خطط تجاه الشرق ، وبرغم أن آراءه كانت تختلف مع آراء حكومة الادارة الا أنه استطاع أن يحصل على موافقتها . ويجدر بنا أن نوضح وجهتي النظر في هذا الموضوع لأهميتهما .

(أ) **وجهة نظر حكومة الادارة** ... كانت حكومة الادارة ترى وجوب ضرب انجلترا مباشرة ، أى غزو الجزر البريطانية ، ومن أجل هذا أعدت جيشا خاصا يقوم بهذه العملية ، أطلقت عليه اسم جيش انجلترا وكانت ترى فى مهاجمة مصر خطرا بالغا ينحصر فى عدة عوامل ...

الاول : أن أسطول فرنسا سيلتقى قطعا بأسطول انجلترا ، وانجلترا مشهود لها بالكفاية البحرية والقدرة على القتال البحرى .

الثانى : ان غزو مصر سيثير غضب الحكومة العثمانية ، وبذلك يزيد عدد أعداء فرنسا واحدا ... ويصبح على فرنسا أن تواجه عدوين (انجلترا وتركيا) بدلا من أن تواجه عدوا واحدا ..

الثالث : كانت حكومة الادارة ترقب تدخل روسيا المستمر فى المسألة الشرقية ، ولهذا فقد كانت واثقة من أن روسيا ستنظر بعين الاعتبار الى غزو مصر ، وسوف تدلى بدلوها فيما ينتج عن هذا الغزو من مشكلات ..

الرابع : قبول حكومة الادارة فكرة احتلال مصر معناه ابعاد خير جيوش فرنسا وخير قادتها ـ نابليون ـ فى وقت قد تكون فى حاجة اليهم اذا تجدد القتال بينها وبين أعدائها فى القارة الأوروبية .

(ب) **وجهة نظر نابليون** ... كان نابليون ينظر الى مشروعه من وجهة نظر رجل الحرب لا من وجهة نظر السياسيين فكان يرى استحالة نجاح أية حملة توجه مباشرة الى الجزر البريطانية، لأن هذه الجزر كانت محصنة ضد أى هجوم بحرى ، هذا فوق الأساطيل الكثيرة التى كانت تمتلكها انجلترا والتى كانت تفرض بها سيطرتها الكاملة وسيادتها على البحار .

ومن ناحية أخرى فانه كان يقدر لنفسه فترة لا تتجاوز بضعة أشهر لوضع يده على مصر وتوطيد قدمه بها وهى بطبيعة موقعها الجغرافى مركز اتصال بين الشرق والغرب وملتقى التجارة المتبادلة بين القارات الثلاث .

كما أنه كان يأمل أن ينشىء قناة تصل البحرين المتوسط والأحمر فيسهل بذلك على السفن الفرنسية أن تصل الى البحر الاحمر وأن تهاجم أملاك انجلترا فى الهند .

كما أن احتلال مصر سيؤدى الى فرض السيطرة البحرية الفرنسيه على البحر المتوسط ، ومن ثم الى انشاء دولة شرقية كبيرة تعوض فرنسا ما فقدته من المستعمرات .

- ٣ -

الحملة الفرنسية واحتلال مصر

سرية الحملة وتكتم أمرها ..

اقتنعت حكومة الادارة بوجهة نظر نابليون واستقر الرأى على أن يكون يوم ٥ من مارس ١٧٩٨ هو موعد البدء ، وبذلت جهود كثيرة للاعداد للحملة ، فتكون جيش الشرق الذى زود بمعدات كثيرة وأكد المؤرخون أن الاعداد للحملة تم فى سرية تامة وتكتم شديد حتى لا يتسرب الخبر الى الحكومة الانجليزية ، وقيل ان أحدا فى فرنسا لم يكن يعلم سر الاعداد ووجهة الحملة الا نابليون وحكومة الادارة والمسيو «تاليران» وزير الشئون الخارجية . وبلغ من شدة المحافظة على السرية أن أطلق على الجيش الذى أعد للحملة اسم « الجناح الأيسر لجيش انجلترا » ، رغبة فى أن يفهم أن الجيش يعد لغزو انجلترا فى جزيرتها .

مطامع فرنسية سابقة فى مصر ...

يتضح من تاريخ فرنسا ومصر أن حملة نابليون لم تكن أول حملة فرنسية على مصر وانما الثابت أن فرنسا كانت تطمع منذ زمن بعيد فى خلال عصور مختلفة فى احتلال مصر ...

ففى القرن الثالث عشر قاد « لويس التاسع » ملك فرنسا جيشا فرنسيا كبير العدد والعدة (٥٠ ألف مقاتل) واتجه به الى مصر ، ونزل فى دمياط (١٢٤٩) ، ثم تقدم الى المنصورة حيث واجهته جيوش المصريين ، واشتبكت معه فى موقعة المنصورة التاريخية (١٢٥٠) واستطاعت الجيوش المصرية الباسلة أن تقضى على جيش فرنسا ، فقتلت منه ـ ٣٠ ألفا ـ وأغرقت الكثير وأسرت ملكهم ، وألقت به أسيرا فى دار « ابن لقمان » ... (حولت فى عهد الثورة دار ابن لقمان الى متحف افتتحه الرئيس جمال عبد الناصر) وانتهت حملة لويس بالفشل وافتدى نفسه وجنده وخرج من الديار المصرية مدحورا .

وفى القرن السابع عشر استمع ملك فرنسا « لويس الرابع عشر » ، الى نصيحة فيلسوف ألمانى يدعى « ليبنتز » بغزو مصر بدلا من غزو هولندا التى كان يستعد للزحف عليها (مصر هى الميدان الذى تضربونهم فيه (يقصد الهولنديين) فهناك تجدون الطريق الحقيقى لتجارة الهند وهناك تستطيعون امتلاك زمام تلك التجارة ، وانتزاعها من يد الهولنديين

وتضمنون بسط سلطان فرنسا وسيادتها في بلاد المشرق ٠٠) ولم يستطع لويس الرابع عشر تنفيذ هذه النصيحة لانها قدمت اليه بعد أن دخلت جيوشه هولندا ، ولأنه من ناحية أخرى كان يحرص على صداقة تركيا رغبة في حملها على الانضمام اليه ضد الدول الاوربية المعادية وفي عهد « لويس الخامس عشر » قفزت فكرة احتلال فرنسا لمصر الى مكان الصدارة في سياسته الخارجية » وخاصة أن الدولة العثمانية كانت في دور الانحلال واتجه في تحقيق ذلك الى محاولة الاتفاق مع تركيا على التنازل عن مصر ، وكلف الدوق « دى شوازل » القيام بالسعي لدى تركيا ولكن لم تجر أية مفاوضات في هذا الشأن حتى كان « لويس السادس عشر » فتجددت الفكرة ، وأوفدت حكومته البارون « دى توت » الى ثغور السلطنة العثمانية لدرس سواحل مصر ومواقعها ، وقدم توت تقريرا الى الحكومة يعدد فيه مزايا احتلال مصر ويؤكد سهولة اتمامه ، ولكن المشروع طوى لاشتغال فرنسا بحرب الاستقلال الامريكية ٠

ودخلت العلاقات الفرنسية المصرية في دور الرغبة الأكيدة من جانب فرنسا لاحتلال مصر وخاصة بعد ان وصلت الى فرنسا الشكوى المرة من سوء معاملة التجار الفرنسيين بها وظلت فكرة احتلال مصر في أذهان الفرنسيين حتى قامت الثورة الفرنسية وحتى تبناها نابليون واستطاع أن يخرج بها الى حيز التنفيذ ٠

❋ ❋ ❋

تحرك الحملة واحتلال مصر ٠٠٠

أتم نابليون الاعداد للحملة وأصبحت الحملة معدة للتحرك في ثغور « جنوا » ، « طولون » ، « وأجاكسيو » و « سيفيتا فكيا » ، وكانت تتكون من ثلثمائة سفينة ، يحرسها أسطول مؤلف من ٥٥ سفينة حربية ، بقيادة « برويس » الذى كان يتولى القيادة من سفينة تسمى « أوريان » (أى الشرق) ٠

وفي ١٩ من مايو ١٧٩٨ أبحرت الحملة من طولون واتجهت لجزيره مالطة في ٩ من يونيو ، ثم غادرتها في ١٩ من يونية الى الاسكندرية فوصلتها في الأول من يوليو ، وبدأت القوات تنزل في ليلة ٢ من يوليه وتم لها في هذه الليلة احتلال الاسكندرية ٠

وكان لابد لنابليون لاتمام احتلال مصر أن يضع يده على القاهرة بصفتها عاصمة البلاد ، فقسم جيشه قسمين ، سار الأول من الاسكندرية الى رشيد ، ومنها الى القاهرة على شاطىء النيل ٠٠٠ وسار الآخر من الاسكندرية الى الرحمانية بطريق دمنهور ، ومنها الى القاهرة ، ٠٠٠ والتقى الجيشان في الرحمانية ، ووصل اليها نابليون وأركان حربه ٠

وفي شبراخيت (١٣ من يوليو) التقى مراد بك مع نابليون فهزم مراد وتقهقر الى القاهرة ليستعد للمعركة الفاصلة ٠

والتقى الجيشان بعد ذلك فى امبابة على مقربة من الاهرام واستطاع جيش نابليون أن يقضى على جيش المماليك وفر مـــراد بك الى الصعيد ، وابراهيم بك الى الشرقية ٠

ومن المهم أن نوضح أنه فى اللحظة التى استتب فيها الأمر لنابليون فى مصر بدأ المصريون يعدون أنفسهم للكفاح والنضـــال ضد الفرنسيين رغبة فى طردهم ، وفى بقاء البلاد تحت سلطتهم وسيطرتهم وسيادتهم ، وخاصة أنهم تخلصوا فى هذه اللحظات من سيطرة المماليك واستبدادهم ٠ وظهر العملاق المصرى يكيل الطعنات لنابليون الذى دوخ ممالك أوروبا وهز عروشها واستباح أهلها ، وكانت معارك متعددة أثبت فيها المصريون أنهم أصحاب الارض ، الحريصون عليها ، وأنهم سادة البـــلاد ، لا كلمة الا كلمتهم ، ولا سيادة الا لهم ، واستطاع المصريون باتحادهم والتفافهم حول زعمائهم أن يواجهوا قوة الفرنسيين وأن يقفوا أمامهم موقف الند ، وأن يخوضوا ضدهم المعارك فيسجلوا صفحات خـــالدة من الكفاح الشعبى البطولى الذى هز التاريخ وسجل فيه بالمجد والفخار ، وظل كفاح المصريين حتى انتهت الحملة الفرنسية ، وباءت بالفشل ٠

الباب الثانى

الحالة النفسية للمصريين وقت الحملة

١ - محاولة التقرب الى المصريين

٢ - مشاعر المصريين تجاه الحملة

٣ - عوامل الكراهية للفرنسيين

- ١ -

محاولة التقرب إلى المصريين

مهما قيل فيما كانت عليه الأمة المصرية فى هذه الحقبة من التأخر ، فان الشعب المصرى أبى ان يستسلم لدولة معتدية تسعى الى احتلاله وتطمع فى خيراته ، ولعل نابليون قد أدرك ذلك منذ اللحظات الأولى التى بدأ يخطو فيها نحو تحقيق مشروعه باحتلال مصر ، ولهذا حاول أن يجتذب اليه قلوب المصريين وأن يتودد اليهم وأن يكسب ثقتهم ، لأنه كان يؤمن بأنه لن يستطيع تحقيق آماله ما لم يفز بثقة المصريين ، وما لم يجتذبهم الى جانبه .

ولكن خاب ظن نابليون ، وبرغم محاولاته المتعددة لكسب مشاعر المصريين وقف المصريون فى وجهه ، وكانت وقفتهم هذه ذات آثار مباشرة على نتائج الحملة التى باءت بالفشل .

وقبل أن نتناول بالحديث كفاح الشعب المصرى ونضاله لا بد لنا من وقفة نوضح فيها كيف حاول نابليون أن يتقرب الى الشعب وأن يجتذب اليه قلوب المصريين ، فقد كانت لنابليون فى هذا المجال محاولات كثيرة نتناولها الآن بالحديث :

١ ـ بدأت أول محاولة لنابليون قبل أن ينزل جنوده الى الاراضى المصرية ، اذ توجه الى جنده وحدثهم عن المعركة القادمة وأذاع عليهم **منشورات متعددة يوصيهم فيها باحترام مشاعر المصرين واحترام شعائرهم الدينية وعدم التعرض لنسائهم** ، وحذرهم الاعتداء على أموالهم وبيوتهم ، كما هدد وتوعد كل من يخالف هذه الاوامر بالعقاب الشديد ، وجاء فى احدى هذه المنشورات ، « منشور صادر فى ٢٢ من يونيو وأذيع على الجنود فى ٢٨ من يونيو ١٧٩٨ » ، « ايها الجنود انكم ستخوضون غمار حملة لها آثار لا تحصى فى حضارة العالم وتجارته وستنالون انجلترا بضربة هى أشد ما يصيبها فى الصميم .. ان الشعب الذى سنتصل به يدين بدين الاسلام وأول أركانه شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فلا تعارضوهم فى دينهم ، وعاملوهم كما عاملتم اليهود ، وكما عاملتم الايطاليين ، واحترموا مشايخهم وأئمتهم ، ... وستجدون هناك عادات تختلف عن عادات أوروبا ، فعليكم أن تألفوها . وان الشعب الذى سنقيم بينه يعامل النساء على غير عادتنا ، والاعتداء على أعراض النساء جريمة لا يقدم عليها الا الوحوش ... واعلموا أن النهب لا يعود بالنفع الا على طائفة قليلة من

الناس ولكنه يدنس شرفنا ويقضي على مواردنا ويجلب علينا كراهية الشعوب التى تقضى مصلحتنا بأن نكسب ودها » ..

ولقد حرص نابليـــون بعد نزول قواته الى الاراضى المصرية على توجيه النظر الى مراعاة مشاعر المصريين ، والى عدم الاصطدام بهم فى عقائدهم وعاداتهم ، ولم يفرق نابليون فى توجيهاته بين القـــادة الذين يعمـلون تحـت امرته وبين الجنود ، ولهـذا نجـده يوصى الجنرال كليبر الذى عينه حاكما على الاسكندرية أن « يبذل كل ما فى وسعه لاستبقاء العلاقات الحسنة مع الاهالى وابداء كل أنواع الاحترام للمفتين ورؤساء المشايخ فى المدينة » وسار كليبر فى ذات الطريق الذى حدده له قائده ، لانه أحس أن المصريين ينظرون الى الفرنسيين بعين المقت والكراهية .

وحدث أن بعضا من بحارة الاسطول نزلوا فى أبى قير ، واغتصبوا بعض التجار ، وقطعوا بعض النخيل ، واتلفوا بعض البيوت فأغضب ذلك كليبر وبعث الى الاميرال « برويس » قائد الاسطول يقول « انكم لا تقدرون عواقب هذا السلوك فى اثارة روح الكراهية فى نفوس الأهالى فى الوقت الذى نحن محتاجون فيه الى كسب قلوبهم » .

وأصدر كليبر منشورا الى جنده على أثر حادثة قتل فيها جندى فرنسى وثار زملاؤه ورغبوا فى الانتقـام له قال فيـه « أيهـا الجنود انكم ستستهدفون لمثل هذه الحوادث اذا خالفتم أوامر القائد العام واذ لم تحترموا أمـلاك الاهالى وعاداتهم ، ودياناتهم ، ولقـــد رأيت من واجبى حماية للاهالى ومحافظة واطمئنانا عليكم ، أن أصدر الاوامر الآتية : .. كل من يدخل مسكنا لاحد المسلمين فى مكان النساء يعد محرضا على القتل والاخلال بالنظام ويحكم عليه بالاعدام .. كل من يتســلق بيتا من بيوت المسلمين أو غير المسلمين لاى سبب من الاسباب يعد سارقا ويحكم عليه بالاعدام .. من يصيد الحمام داخل المدينة بالآلات النـارية وينشأ عن عمله تعريض حياة الاهالى للقتل والخطر يعد قاتلا ويحكم عليه بالاعدام .. كل من ينتهك شعائر المسلمين الدينية فى المساجد فى أثناء صلواتهم أو وضوئهم يعد محرضا على الاخلال بالنظام ويحكم عليه بالاعدام » .

ومما يجدر بالذكر فى هذا المقام أن كليبر حرص كل الحرص على بقاء العلاقات المصرية الفرنسـية دون تكدير أو شقاق حتى انه عارض نابليون حينما طلب فرض ضرائب على تجار الاسكندرية ، فقد رأى فى فرض ضرائب جديدة اثارة لسخط الاهالى وغضبهم ، ولهـــذا تلكأ فى تنفيذ أوامر نابليون ، فلما عاتبه على ذلك وامره بالتنفيذ أبى وقـــدم استقالته من وظيفته ، وطلب أن يتولى قيادة فرقته المحـــاربة ولكن نابليون أدرك ما يهدف اليه كليبر واستجاب لرغبته وأذعن لارادته .

يبدو لنـــا اذن أن نابليون وقواده كانوا حريصين على المحـافظة على مشـاعر المصريين وعواطفهم وبذلوا جهدا كبيرا لاجتذابهم اليهم بمنع كل ما من شأنه أن يؤدى الى الاساءة الى العلاقات بين المصريين والفرنسيين .

٢ ـ قلنا ان العلماء كانوا يمثلون جانب القيادة بالنسبة للمصريين

وأدرك نابليون ذلك ، ولهذا اتجه الى العلمـاء ،**وحاول ان يربط بينه وبينهم برباط المودة** ، فقد كان يؤمن بأن كسب العلماء الى صفه يعنى كسب الشعب أجمع ولهذا نجده على أثر انتهائه من معركة الاهرام يطلب الاجتماع بكبار المشايخ زاعما أنه لاجل « راحتكم وراحة الرعية واجراء الشريعة » ، ولما علم بأن المشايخ قد غادروا المدينة خوفا من الاحتلال بعث اليهم بالامان ، ودعاهم الى الحضور ليتشاور معهم فى تأسيس حكومة أهلية يكون العنصر السائد فيها من المصريين .

والمتتبع لخطوات تأليف الديوان فى القـاهرة يرى ان نابليـون استدعى المشايخ واجتمع بهم وطلب منهم اختيار عشرة ليكونوا أعضاء فى الديوان ، ووقع الاختيـار كما ذكر « الجـبرتى » على المشـايخ « الشرقاوى ، والبكرى ، والصاوى ، والفيومى ، والمهدى ، والسرسى ، والدمنهورى ، والعريشى ، والشبراخيتى ، والدواخلى » .

ولعل مما يؤكد محاولة نابليون التقرب الى العلماء والمشايخ موقفه من الشيخ السادات ــ وكان من كبار العلماء وله نفوذ وجاه ــ اذ رفض السادات عضوية الديوان وعارض أمر نابليون باعتماد عضويته ، فلم يغضب نابليون لذلك وانما أظهر له الاحترام والتقدير ، وأمر بتعيينه على راس لجنة عهد اليها فحص شكوى الافراد ، وكانت هذه اللجنة تضم المسيو « روستى » قنصل النمسا ، والجنرال « جونو » كما أن نابليون قام بزيارته فى منزله وأبدى له شـعوره حيـاله ، حتى أن « الجبرتى » يصف هذا الشعور بقوله « لم يتعرضـوا « يقصـد الفرنسيين » له فى شيء ، وأفرجوا عن تعلقاته ، وقبلوا شفاعته وتودد اليه كبيرهم وأعاظمهم » .

ومن هؤلاء الذين تقرب اليهم نابليون وأكرمهم وقبل شـفاعتهم ووثق بهم « الشيخ محمد المهدى » وكان له من النـفوذ ما جعـل الفرنسيين يتقربون اليه حتى لقب عندهم وعند الناس بكاتم السر . ولقد أسند اليه نابليون منصب سكرتير عام الديوان .

ولا يفوتنا ونحن فى مجال الحديث عن سعى نابليون وقادته الى استرضاء المشايخ الى أن نشير الى موقفه وموقفهم من السيد/محمد كريم حاكم الاسـكندرية حين جاءت الحملة الفرنسـية ، وكان قد استبسل فى الدفاع عن المدينة فقد قال له نابليون فى مجلس من اعيان المدينة « لقد أخذتك والسـلاح فى يدك وكان لى أن أعاملك معـاملة الأسير ، ولكنك استبسلت فى الدفاع ، والشجاعة متلازمة مع الشرف ، لذلك أعيد اليك سلاحك » ، وعندما ألقى الجنرال كليبر القبض عليه بعث به الى الاميرال « برويس » ليحتفظ عليه عنده على ظهر البارجـة «أوريان» ، وتلقاه هذا بالاحترام وأكرم وفادته ، وعامله برفق ورعاية ، وبعث الى نابليون برسالة قال فيها « أرسل الى الجنرال كليبر منـذ ثلاثة أيام حاكم الاسكندرية الوطنى ، فأفردت غرفة كبيرة له ولحاشيته وأنزلته منزلا كريمـا وانى أعامله بكل رعاية واحترام معتقدا أنى بذلك أحقق رغبـاتكم » وفى ٣٠ من يوليو ١٧٩٨ أرسل « برويس » السيد /

محمد كريم الى الجنرال « مينو » حاكم رشيد ليبعث به الى القاهرة وكتب اليه « انى لم أستطع أن أرفض وجاء المتكرر البالغ نهاية
وكتب اليه « انى لم أستطع أن أرفض رجاءه المتكرر البالغ نهاية التلطف
« يقصد السيد\كريم » وأرجوكم اذا نزل برشيد أن تعاملوه باحترام » .

ان هذه المعاملة الرقيقه للعلماء والمشايخ من جانب الفرنسيين تؤكد أنهم رغبوا فى توطيد علاقات طيبة معهم بقصد ايجاد جو من التفاهم والمودة بين الفرنسيين والمصريين ولكن متى نسى العلماءوالمشايخ حق وطنهم عليهم ؟ .

لقد عاشوا حياتهم ثائرين داعين الشعب الى الثورة ضد الفرنسيين بل عاشوا حياتهم قادة لهذه الثورة واستطاعوا أن يثيروا المتاعب والقلاقل من حولهم ، مما أدى الى نتائج خطيرة كان من اثرها فشل الحملة الفرنسية على مصر وخروج الفرنسيين مدحورين مهزومين .

٣ ـ برغم اتجاه نابليون الى العلماء فهولم ينس أن يتجه الى المصريين أنفسهم .. الى الشعب رغبة منه فى أن يشعره بالطمأنينة والامان ، ولقد اتجه نابليون الى الشعب بكل مشاعره وعواطفه وطاقاته وامكانياته، وحاول بمختلف الطرق وتعدد الاساليب أن يجتذب الشعب اليه ، وأن يشعره بأن الحملة الفرنسية ما جاءت أساسا الا لانقاذه من حالة الفقر والجهل والمرض والتأخر التى أوجده فيها المماليك .

ولعل فكرة تخليص المصريين من حكم المماليك كانت الورقةالاولى التى لعب بها نابليون ، والتى بدأ بها محاولاته لكسب الشعب ، فهو فى يوليو ١٧٩٨ يصدر منشورا يتحدث فيه الى المصريين فى مودة وتعاطف ويوضح لهم هدف الحملة ، فهو يقول فى منشوره كما أورده الجبرتى « من زمان مديد والسناجق يتسلطون فى البلاد المصرية ويتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنسية ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى ، وحانت الآن ساعة عقوبتهم ، .. هذه الزمرة من المماليك المجلوبين من بلاد الجراكسة « فى الاصل الفرنسى المجلوبون من جورجيا والقوقاز » يفسدون فى الاقليم الحسن الاحسن الذى لا يوجد فى كرة الارض كلها .. أيها المصريون قولوا للمفترين أننىماقدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين .. ماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها ، من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرجة ، فاذا كانت الارض المصرية التزاما للمماليك فليقدموا لنا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم ، ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييئس أحد من أهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الامور ، وبذلك يصلح حال الامة كلها » .

هذا المنشور يفهم منه أن نابليون جاء ليحارب المماليك لا المصريين ، وليوقع بهم العقاب لسوء معاملتهم للفرنسيين ولاعتدائهم على

التجار ، واساءتهم الى أهل البلاد بالمظالم التى يرتكبونها ، وهو بهذا الحديث يسعى الى استمالة قلوب المصريين اليه .

٤ ـ **وأدرك نابليون مدى ايمان المصريين بدينهم الاسلامى ومدى تمسكهم بشعائره** ، ولهذا وجه غاية عنايته الى المسألة الدينية ، فأثار فى نظر المصريين اهتمامه بالديانة الاسلامية ، واظهر لهم عنايته بكل ما يدعو اليه الاسلام ، وأعلنهم ان الحرية مكفولة الى اقصى حدودها لاقامة شعائر الدين . ولا عجب فى هذا فهو حين يخاطب المصريين للمرة الاولى يبدأ منشوره اليهم بقوله « بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله لا ولد له ، ولا شريك له فى ملكه » ، ثم يقول « اننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم » ، ثم هو بعد ذلك يدعو المشايخ والقضاة والأئمة ويخاطبهم بلغة رجل الدين فيقول لهم « قولوا لأمتكم ان الفرنسيين هم أيضا مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى ، وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها « الكوالرية » الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين » .

ونابليون يعد المشايخ والعلماء والشعب فى مصر بأن يقوم النظام فى البلاد فى حدود تعاليم ومبادىء القرآن . فهو يقول فى رسالة له الى الشيخ محمد المسيرى الذى عين رئيسا لديوان الاسكندرية « اننى أتعشم ان يجىء الوقت الذى أستطيع فيه أن أجمع عقلاءالبلاد وعلماءها وأن أضع نظاما موحدا مؤسسا على مبادىء القرآن ، تلك المبادىء الصحيحة التى تكفل للناس سعادتهم » .

ولعل من أبرز مظاهر اهتمام نابليون بالناحية الدينية اصراره على مشاركة المصريين فى احتفالاتهم الدينية وكان بذلك يهدف الى تخفيف حدة الكراهية التى كانت تبدو عليهم منذ احتلاله بلادهم ، فقد حدث أن احتفل المسلمون فى ٢٤ من أغسطس ١٧٩٨ بذكرى المولد النبوى ولم يترك نابليون هذه الفرصة تمر دون أن يسهم فيها تقربا من المصريين ، وقد امر نابليون بأن يقام الاحتفال كالمعتاد وعين بمناسبة الاحتفال خليل البكرى نقيبا للاشراف بدلا من السيد/عمر مكرم ، وخلع عليه خلعة ثمينة ، وصمم على حضور الاحتفال منذ بدئه حتى نهايته . وجلس على احدى الموائد ، وقد صفت عليها أطباق الطعام ، وقدم معاونة ماليه ليخرج الاحتفال فى صورة مناسبة ترضى مشاعر المصريين ووصف «الجبرتى» الاحتفال فقال « .. وامر بتعليق تعاليق واحبال وقناديل ، واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا وضربوا طبولهم ودبادبهم ، وأرسل الطبلخانة الكبيرة ـ موسيقى الجيش ـ الى بيت الشيخ البكرى ، واستمروا يضربونها طول النهار والليل بالبركة « يقصد ميدان الازبكية » وعملوا فى الليل حراقةنفوط مختلفة ، وصواريخ تصعد فى الهواء ... » .

وانتهز نابليون فرصة اخرى وهى فرصة خروج الحجاج الى الحجاز لاداء فريضة الحج ، فعين مصطفى بك كتخدا الباشا « وكيل

الوالى » أميرا للحج فى سبتمبر ١٧٩٨ وخلع عليه خلعة خضراء بحضور أعضاء الديوان ، وأهداه جوادا كريما وأبلغ هذا التعيين رسميا الى جميع الدول الاسلامية والى شريف مكة كما قرر ارسال أوقاف الحرمين .

وانتهز نابليون فرصة حلول شهر رمضان فأمر بالاحتفال باثبات الرؤية احتفالات عظيما ، حتى أن المحتسب سار بموكب كبير الى بيت نابليون بالازبكية ، وابلغه رؤية الهلال . وبالغ نابليون فى الحفاوة به .

وفى أغسطس ١٧٩٩ جرى الاحتفال بوفاء النيل وراسه الجنرال « دوجا » الذى كان معينا قائمقاما للقاهرة وكتب الشيخ أحمد العريشى قاضى قضاة مصر حجة الوفاء ، وذكر « الجبرتى » فى هذا الصدد « وأكثر الفرنسيس فى تلك الليلة وصباحها من رمى المدافع والصواريخ من المراكب والسواحل ، وباتوا يضربون أنواع الطبول والمزامير ، وفى الصباح ركب « دوجا » قائمقام القاهرة وصحبته أكابر الفرنسيس وأكابر أهل مصر ، وحضروا الى قصر السد وجلسوا به ، واصطفت العساكر بين الروضة وبر مصر القديمة بأسلحتهم وطبولهم ، وبعضهم فى المراكب لضرب المدافع المتتالية الى ان انكسر السد وجرى الماء فى الخليج فانصرفوا وقد ترجم علماء الحملة الفرنسية وثيقة حجة الوفاء الى لغتهم ونشرت هذه الوثيقة فى كتاب تخطيط مصر . »

بهذه الوسائل المختلفة فى مجال الدين سعى نابليون الى اجتذاب قلوب المصريين . وحاول أن يوضح ويؤكد للعالم الاسلامى أنه ليس عدوا للمصريين ولكنه صديق لهم يحترم شعائرهم ، ويعمل على تنفيذ تعاليم دينهم ومن الطبيعى أنه أراد بذلك ان يتقرب للناس ليأمن جانبهم ولكن المصريين المسلمين يعرفون تماما ان دينهم ، أقر الحرية ودعا الى مقاومة الطغيان والاستبداد ، ودفع كل ما يضر بالعباد ويسىء الى البلاد ، ولهذا لم تنجح محاولات نابليون فى اخماد شعلة الوطنية المتأججة فى نفوس المصريين المؤمنين بحقهم وبحريتهم .

ومما يؤكد صدق ما نذهب اليه أن نابليون أقام احتفالا كبيرا فى القاهرة فى ٢٢ من سبتمبر ١٧٩٨ بمناسبة عيد الجمهورية الفرنسية . ودعا المصريين الى المشاركة فيه ، وكان مما أقامه فى هذا الاحتفال سارية عظيمة فى ميدان الازبكية أطلق عليها اسم « شجرة الحرية » وقد قال « نيقولا الترك » وقد شهد هذا الاحتفال تعليقا على هذه الشجرة ما يوضح مشاعر المصريين خلال هذا الاحتفال «ان الفرنسيين كانوا يقولون ان هذه شجرة الحرية، أما أهالى مصر فكانوا يقولون ان هذه اشارة الخازوق الذى أدخلوه فينا ، واستيلائهم على مملكتنا ، واستمر هذا العامود نحو عشرة أشهر ، وحينما رفعوه استبشر أهل مصر وابتهجوا بالفرج » .

ومما يدل ايضا على نفسية المصريين وعدم تجاوبهم مع الفرنسيين ما ذكره الدكتور « ديجنت » كبير أطباء الجيش الفرنسى من أن هذه الاحتفالات لم يكن لها أثر فى سكان القاهرة وكذلك الامر الذى أصدره الجنرال « برتييه » رئيس أركان حرب الحملة الى الجنرال « ديبويه »

بأن يضع حرسا بناحية قنطرة الدكة التى كان يدخل منها ماء الخليج الى ميدان الازبكية خوفا من أن يعمد المصريون الى فتح السد فتطغى المياه على مكان الاحتفال فتعكر صفوه .

٥ ــ **اتجه نابليون الى تنظيم المجتمع المصرى وازالة ما علق به من أسباب التاخر ومحاولة النهوض به فى مختلف نواحيه** وكان دافعه الى ذلك رغبته الاكيدة فى أن يشعر المصريين أنه ما جاء الى أرضهم الا لرفع الظلم عنهم واصلاح شئون حياتهم ، وانقاذهم من أنواع العنت والظلم والجهالة والارتقاء بهم الى مستوى يليق بمكانتهم ، ولا شك فى أن نابليون كان يريد بهذا أن يوجد نوعا من العلاقات الطيبة بينه وبين شعب مصر ، فيأمن بذلك جانبه ، ويضمن استقرار الاحوال فى البلاد حتى يتفرغ هو الى تحقيق مشروعه الاستعمارى الكبير ، ولهذا اسرع نابليون بعد أن استتب له الامر على أثر انتصاره فى معركة الاهرام وفرار مراد بك الى الصعيد ، وابراهيم بك الى الشرقية ، بانشاء ديوان القاهرة ليتولى هذا الديوان الاشراف على المدينة وادارة دفة الاعمال بها ، وعين عشرة من المشايخ والعلماء أعضاء فى هذا الديوان ، واختير الشيخ محمد المهدى سكرتيرا له . وبذلك أصبحت السلطة المدنية فى القاهرة فى يد الديوان أى فى يد العلماء ، هذا فى الوقت الذى كانت السلطة العسكرية فى يد نابليون .

ولم يقتصر الامر على انشاء ديوان القاهرة ، وانما أمر نابليون بتعميم نظام الديوان فى جميع مديريات القطر المصرى ، وفى ٢٧ من يوليو صدر أمر يقضى بأن يتألف فى كل مديرية ديوان من سبعة اعضاء يسهرون على مصالح المديرية ويباشرون اعمال الامن فى داخلها ، ويقوم الديوان بجباية الضرائب والنظر فى شكوى االأهالى .

واتخذ نابليون بعد ذلك خطوة ثالثة ، اذ دعا أعيان العاصمة والاقاليم الى الاجتماع فى جمعية عامة أطلق عليها اسم الديوان العام « ٤ من سبتمبر ١٧٩٨ » ، وأصبح من اختصاص هذا الديوان الذى شكل « من الاشخاص الذين لهم نفوذ بين الاهالى ومن الذين امتازوا بمركزهم العالى وكفايتهم » وضع النظم المالية والادارية والقضائية للبلاد ، ورأى نابليون أن يضم الى الديوان عالمين من علماء الفرنسيين يتوليان عرض المشروعات على الديوان وادارة المناقشات فيه ، والقى نابليون على عاتقها بمهمة خطيرة هى على حد قوله فى رسالته اليهما « يجب أن تفهما الاعضاء اننا لا نقصد الا توفير السعادة والرفاهية للبلاد التى تشكو من سوء نظام الضرائب الحالى ، كما تشكو من طريقة تحصيلها ولقد اجتمع هذا الديوان فى اكتوبر والقيت فيه خطبةالافتتاح التى جاء فيها « لم يبق بأيدى الناس الا القدر اليسير وسار الناس لأجل ذلك مختفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم ، وان طائفة الفرنساوية بعد أن تمهد أمرهم وبعد صيتهم بقيامهم بأمور الحروب اشتاقت لاستخلاص مصر مما هى فيه واراحة أهلها من تقلب هذه الدولة « يعنى الدولة التركية » المفعمة جهلا وغباوة فقدمواوحصل لهم النصر ، ومع ذلك لم يتعرضوا لاحد من الناس ولم يعاملوا الناس

بقسوة ، وأن غرضهم تنظيم أمور مصر واجراء خلجانها التى دثرت ، فيصير لها طريقان طريق الى البحر المتوسط وطريق الىالبحر الاحمر ، فيزداد خصبها وريعها ، ومنع القوى من ظلم الضعيف ، وغير ذلك استجلابا لخواطر أهلها ، وابقاء للذكرى الحسنة ، ... وان هذه الطوائف المحضرة من الاقاليم يترتب على حضورها أمور جليلة لانهم أهل خبرة وعقل ، فيسألون عن أمور ضرورية ويجيبون عنها فينتج من ذلك ما يليق صنعه » .

من هذا الخطاب يتضح ان نابليون أراد أن يشعر المصريون أنهم اصحاب الامر والنهى فى بلادهم ، وأن جيوشه ما جاءت الا لتؤكد هذا المعنى ، ولتأخذ بأيديهم الى مناصب الحكومة ، فيحكموا أنفسهم بأنفسهم ، ويديرون أعمال البلاد بما تمليه مصالحهم ، وبذلك يرتقى أمرهم وينصلح حالهم .

وألقى نابليون بين ايدى العلماء بمختلف السلطات ، وتركهم يديرون امور القضاء المدنى منه والجنائى ، ويضعون تشريعات خاصة بالارث وفرض الضرائب ، وتسجيل العقود ، وكان هذا النظام جديدا فى حياة مصر ، فقد جعل للمصريين حقوقا فى حكومة البلاد ، وسعى الى تدعيم الصناعة فى البلاد والى اجراء اصلاحات كثيرة بها فى مجالات الصحة العمومية فأنشأ مثلا محاجر صحية ومستشفيات ، ووضع لوائح النظافة المدنية ، ثم أمر بانشاء طواحين الهواء ، وأصلح دار الصناعة ، وأنشأ مصنعا للبارود ، وآخر للجوخ ، وآخر لدبغ الجلود ، ومصنعا للنجارة ، واصلح مقياس النيل ، وأقام الجسور ، وهذب الشوارع وغرس على جوانبها الاشجار ، وأقام المسارح لتمثيل الروايات ، وكلف علماءه النهوض بجميع نواحى البلاد .

ونابليون بهذه الامور كلها اراد أن يتقرب الى المصريين وأن يشعرهم انه ما جاء مستعمرا وانما جاء مصلحا ، لا يبغى مصلحة فرنسا بقدر ما يهدف الى صلاح الامور فى مصر ، وبرغم الاصلاحات الكثيرة التى ادخلها والنظم التى أقامها لم يستطع أن يكسب شيئا من عاطفة المصريين ، لان هؤلاء نظروا الى الحملة الفرنسية منذ نزلت الجنود الفرنسية فى أرض مصر ، نظرة تنم عن الكره الشديد للمحتل الذى جاء يحتل بلادهم ، ويفقدهم حريتهم .

وكانت هذه النظرة من جانب المصريين عاملا كبيرا فى رفض المصريين لكل ما هو فرنسى ، وعاش المصريون جميعا يتطلعون الى اللحظات المناسبة للانقضاض على الفرنسيين وطردهم خارج الديار المصرية ، ولقد كان لموقف الكراهية هذا أثر كبير اذ عجل بنهاية الفرنسيين فى مصر ، وجعل مدة اقامتهم فوق الاراضى المصرية قصيرة دون أن يتحقق لهم أى أمل من الآمال الكبيرة الواسعة التى كانت تداعب خيالهم حين خرجوا من موانى فرنسا الجنوبية متجهين الى الاراضى المصرية .

وهناك عامل آخر هام لا بد من ان تسلط عليه الاضواء ، فالامة

المصرية أعرضت عن نابليون ولم يكن لوعوده أو لتقربه الى المصريين أو لاصلاحاته المتعددة التى أدخلها على نظم الحكم وعلى الحياه الاجتماعية ، أى أثر فى نفسية المصريين ، لانهم أدركوا بنظرتهم العميقة الى وقائع التاريخ وأحداثه ، ان نابليون اتخذ ذات السلاح مع غير مصر من الامم التى غزاها ، وانه لم يبر بوعده لامة من الامم التى فتحها ، وانه استغل جميع البلاد التى استسلمت لجحافله استغلالا بعيد المدى يخدم مصالحه وأغراضه .

وأدرك المصريون أن نابليون كان يهزأ بحرية الامم ولا يقيم وزنا لاستقلال الشعوب ، لهذا أبى المصريون أن يكونوا أداة مسخرة فى أيدى نابليون يحقق بها أطماعه وينفذ بها مشروعاته ، ويفرض بها سيطرته على الشعوب ، ولقد اعترف فرنسيون كثيرون بهذه النظرة العميقة الصحيحة من جانب المصريين ، ومن هؤلاء المسيو « مارتان » وهو من مهندسى الحملة ، فقد قال فى كتاب له أرخ فيه تاريخ الحملة الفرنسية على مصر « بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر ، فانهم لم يستقر لهم قرار فى البلاد ، وكان مركزهم فيها مزعزعا ومحفوفا بالمتاعب ، ولم يترك الاهالى وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية الا أتبعوها ، وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضمن هذه المقاومة » .

وقال المسيو « ريبو » فى كتابه الذى تحدث فيه عن الجانب الحربى والعلمى للحملة الفرنسية «كان من الصعب أن توجد أمة تبلغ بها السذاجة مبلغ أن تنتظر الخير من جيش يركب متن البحار ، ويستهدف للأخطار ويحتل بلادها ويخوض فيها غمار الحرب لمجرد الدفاع عن مصالحها ، ولا يمكن أن تؤثر المنشورات والكلمات الفخمة فى تغيير حالة الشعب النفسية » .

- ٢ -

مشاعر المصريين تجاه الحملة

قبل أن نخوض في حديث النضال الشعبي في مصر ضـد الحملة الفرنسية يهمنـا أن نبرز نقطة هامة وهي : كيف قابل المصريون الحملة الفرنسية على الأراضي المصرية ؟ ونحن باثارتنا هذه النقطة انما نهدف الى تبيان حقيقه مشاعر المصريين تجاه الفرنسيين خاصة ، وتجاه أي مستعمر بصفة عامة ٠

فالمصريون جبلوا على حب الحرية وعلى احترام سـيادتهم وعلى صون استقلالهم وهذه حقيقةيؤكدها تاريخ النضال المصري في العصور المختلفة ، فالمصريون عاشوا حياتهم يؤمنون بالحرية ويقدسون اسـتقلالهم ويعتزون بسيادتهم حتى في الفترات التي اضطروا فيها الى الاستكانة تحت ضغط مستعمر أو مغتصب ، فهم في هـذه الفترات طووا ضلوعهم على آمالهم ، وانتظروا لحظة الخلاص لينطلقالعملاق المصري يحققلهم حريتهم وسيادتهم واستقلالهم ٠

حين خرج نابليون بأسطوله قاصـدا الاراضي المصرية كانت انجلترا له بالمرصاد وكان الاميرال « نلسون » يقود أسطوله باحثا في مياه البحر الابيض عن الأسطول الفرنسي ليقضي عليه وليغرق آماله وأحلامه في قاع البحر المتوسط ، وحدث أن وصل أسطول نلسون الى الاسكندرية في ٢٨ من يونيو سنة ١٧٩٨ ، في حين كان الأسطول الفرنسي في مالطة وحاول نلسون اقناع السيد/محمد كريم بدخول الاسـكندرية ليصد الفرنسيين عند حضورهم ، الا أن الحاكم رفض هـذا الطلب ظنا منه أنها خديعة تستهدف نزول القوات البريطانية الى أراضي مصر ، فغادر نلسون بأسطوله المياه المصرية ، وبعد فترة وصـل نابليون بأسطوله ، وأمر أن تنفصل السفينة «جونون» وأن تتقدم الى الاسكندرية لتبلغ قنصل فرنسا بوصول الحملة ولم تستطع السفينة الوصول الى الشاطيء فعادت ومعهـا قنصل فرنسا الذي نقل الى نابليون صورة متكاملة لحالة الهيـاج العنيف التي عمت الاهالي ، مما دعاهم حين علموا باقتراب الحملة الى اعتقال جميـع الفرنسيين كرهينة ، والى جمع السلاح وحمـلة للدفاع عن مدينتهم ، والى الاستنجاد وطلب العون ممن حولهم منالاهالي والعرب وقد وصف المسيو « فيفيان دينون » مشاعر المصريين وحالتهم النفسية حين علموا بوصول الأسطول الفرنسي في كتاب له « قدم الينا قنصلنـا بصحبته ترجمانه ، وقد خالطه الرعب ، بعد أن نجا من القتل ومن هياج الشعب ، وأخبرنا أن أسطولا انجليزيا مؤلفا من أربع عشرة بارجةحربية كان بالثغر ولم يغادره الاعشية أمس الاول ، وأن الانجليز صرحوا بأنهم قادمون للتفتيش عنـا

ومحاربتنا وقد ظنهم الاهالى فرنسيين ، فانفجر بركان الهيـاج فى البـلاد كلها لشعورهم باقترابنا، وكانوا يتوقعون ذلك من يوم أن علموا باحتلالنا لمالطة ، وقد استعدوا للمقاومه فأخذوا يحصنون القلاع ويزيدون عـــدد الجنود بالمتطوعين للقتال ، ويجمعون جيشا من العرب » ٠

وجاء فى مذكرات الكولونيل « سلكوسكى » احد ضـباط الحملة أن الخبر الذى أزعجنا هو قدوم الاسطول الانجليزى الى الاسكندرية ومغادرته اياها قبل وصولنا ، وقد انزعجت له البلاد وظنه الناس أسطول الفرنسيين الذين يتوقعون حضوره منذ مدة ، ومن يومئذ أخذ جميع الاهالى يعـدون العدة للمقاومة ، فحملوا السلاح وانضم اليهم المغاربة من ضواحى الثغر ، وتحصنوا بالاسوار فى حين كان اربعمائة من الفرسان يجوبون الضواحى استعدادا للقتال » ٠

وعندما لاح الأسطول الفرنسى وأصـــبح فى حدود النظـــر ارسل السيد / كريم ثلاثة عشر ساعيا الى القاهرة لينبىء المسئولين بوصـــول الفرنسيين ، وبذل معه أهل الاسكندرية كل ما فى استطاعتهم لمقاومة الغزو وللدفاع عن المدينة ، وحصنوا الاسوار ، وأمدوا القلاع بالذخيرة ، وأعدوا السلاح ، وحمله القادرون منهم ، ووضعوا المدافع فى أماكنها على أسوار المدينة ، وجهزوا جماعة من الفرســـان لتقوم بمناوشه الفرنسيين عنـــد نزولهم ، ووقف الاهالى محتشدين حاملين السلاح مشاة وركبانا ، رجالا ونســـاء ، صغارا وكبارا يطلقون النيران ، ويقـــاومون الغـــزو ، الا أن الفرنسيين استطاعوا أن يتغلبوا عليهم لكثرة عدتهم ولتميز سلاحهم ٠

المهم هو أن الاهالى منذ اللحظة الاولى وقفـوا ينـــاوئون الجيوش الفرنسية ، ويصدونها عن ديارهم وبذلوا فى سبيل ذلك الارواح ، وسجلوا شجاعة منقطعة النظير حتى أن رجلا وامرأة ، اختفيا وراء احدى النوافذ واطلقا النار على « بونابرت » وسكرتيره الخاص وكادا يقتلانهما لولا أن جنود الحرس تنبهوا لهما وهاجموهما وقتلوهما ٠

ولا شك أن المصريين فى مقاومتهم الاولى للجنود الفرنسية أنزلوا بهم خسائر فادحة ، فأصيب الجنرال كليبر بعيار نارى فى جبهته وأصيب الجنرال مينو بضربة حجر ، وأصيب الجنرال « أســـكال » كما قتل اللواء « ماس » ٠

ولقد شهد الاعداء بعظم المقـــاومة المصرية ، فالجنرال « برتييه » كتب الى وزارة الخارجية الفرنسية يقول « ان الاهالى دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت » والجنرال « مينو » كتب الى نابليون يقول « أن الاعداء (يقصد الأهالى) قد دافعوا عن المدينـــة بشجاعة كبيرة ، وثبات عظيم » ٠

وبرغم انتصار الفرنسيين ووصولهم الى القاهرة فان مشاعر المصريين لم تتغير حيالهم ، وليس أدل على ذلك من أنه حين عاد الاميرال « نلسون » الى أبى قير وشاهد الاسطول الفرنسى وتقدم ناحيته ليدخل معه فى معركه فاصلة ، كانت سفينة مصرية تتقدم أسطوله تحمل فوق سطحها جماعة

من المصريين يرشدون الأسطول الانجليزى الى مسالك البحر ، ولا يختلف اثنان فى ان الدافع الذى جعل هؤلاء المصريين يتقدمون لمعاونة الانجليز هو دافع وطنى تملكهم فتقدموا هادفين الى الحاق أية هزيمة على أى مستوى بالفرنسيين الذين تحت ضغط القوة احتلوا بلادهم ، ولقد أكد هذه الرواية الضابط الفرنسى « شاربيه » اذ قال « فى منتصف الساعة الخامسة مساء شاهدنا فى عرض البحر سفينة مصرية قادمة من الاسكندرية تتصل باحدى السفن الانجليزيه ولم تنفصل عنها بالرغم من أن السفينة «البرت» أطلقت عليها عدة قنابل » .

وكان من الطبيعى أن يواجه المماليك فى مصر جيش الفرنسيين دفاعا عن وجودهم ، والشىء الجديد الذى يجب أن تسلط عليه الاضواء هو قيام المصريين بدور كبير فى المقاومة ومعاونتهم الصادقة للمماليك ، لا حبا فى المماليك ولا ميلا اليهم ، انما حبا لبلدهم رغبة فى صيانتها من عبث الفرنسيين .

ومن أجل هذا يجد المتعمق فى دراسة تشكيل جيش مراد بك الذى خرج لمواجهة الفرنسيين فى شبراخيت ، أن ثلاثة آلاف فقط من مجموع الجيش البالغ ١٢ ألفا كانوا من فرسان المماليك ، والباقى تسعة آلاف ، أى أن الغالبية العظمى للجيش الذى خاض غمار معركة شبراخيت كانت من الفلاحين ، الذين لم يكونوا يملكون سلاحا كافيا فحملوا العصى يواجهون بها مدافع الفرنسيين ، ولقد كان للمصريين دور كبير فى هذه المعركة ، فقد خرجت الالوف من الاهالى تهاجم أسطول الفرنسيين المتقدم فى النيل ، فأغرقت منه خمس سفن واستولت على سفينتين مسلحتين وجرحت الأميرال « بيرى » .

وكان المصريون يقاتلون بايمان وقوة حتى ذكر كثير من المؤرخين أن الهزيمة كانت أقرب ما تكون الى الجانب الفرنسى فى هذه المعركة .

وبرغم انهزام المصريين فى هذه المعركة الا أنهم لم يفقدوا القدرة على المقاومة ، فقد أحسوا بخطورة الدور الملقى على عاتقهم وبدءوا يهتمون بشئون الدفاع عن القاهرة ، حيث ستدور الموقعة المقبلة وأشاد المؤرخون بأهالى القاهرة ــ الذين عانوا من ظلم المماليك ــ وهم يغادرون ديارهم ليدافعوا عن عاصمة بلادهم فى وجه الجيش الزاحف ، وبدا الشعب المصرى أرقى نفسا ، وأنبل قصدا من حكامه الظالمين ، فأقاموا المتاريس وأغلقوا الاسواق ، وجمعوا المال ، ورتبوا شئون المقاومة ، وجهزوا أنفسهم بالسلاح والزاد ، وكما يقول « الجبرتى » ان جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما فى مقدورهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم ، فلم يشح أحد فى ذلك الوقت بشىء يمتلكه » .

وفى بولاق تجمع المصريون جميعا يقاومون ويدافعون ، يقتلون ويقتلون ، حتى كانت النهاية المفجعة التى أدى اليها سوء القيادة التى كان يتولاها المماليك « ولقد وضح دور المصريين فى هذه المعركة وضوحا بالغا ، لاسبيل الى انكاره ، حتى أن المسيو «تييرس» ذكر فى كتابه تاريخ

الثورة الفرنسية أن قوة من الفلاحين تبلغ ٢٤ ألفا كانت تدافع عن قرية امبابة ، وذكر الجنرال « برتييه » في كتابه عن حروب بونابرت في مصر وسورية « استولى الفرنسيون على قرية امبابة بعد ان دافع عنها نحو ١٥٠٠ مملوك ومثلهم من الفلاحين دفاع الابطال ، ورفضوا التسليم فماتوا قتلى وغرقى وأشار نابليون في مذكراته الى دور الفلاحين — ويعنى بهم المصريين — في المعركة ، كما أشار الى ذلك كثير من الكتاب الفرنسيين نذكر منهم « ريبو » « ودى لا جونكيير » « وريكاردو » .

هذه صورة للقاء الأول الذى تم بين المصريين والفرنسيين ومما يجب الاشارة اليه أن المصريين اندفعوا لمقاومة الفرنسيين منذ اللحظة الأولى بوازع من وطنيتهم ، وبدافع من اخلاصهم لبلادهم ، ولم يكن للمماليك دخل في هذه الجموع التي احتشدت متطوعة للدفاع عن البلاد ، واذا كانت هذه الصورة قد أوضحت مدى الكره الذى ملأ قلوب المصريين من ناحية الفرنسيين ، فان هذا الكره قد ازداد عنفا وشدة بعد أن استتب الامر للفرنسيين في مصر ، حتى أن المصريين عاهدوا أنفسهم على العمل المستمر والكفاح المتصل للقضاء على الفرنسيين ، مهما بذلوا في ذلك من دماء وأرواح ، ومهما كلفهم ذلك من تضحيات وخسائر ، لانهم كانوا يدافعون عن بلدهم .. عن أرضهم .. عن وطنهم ... وهذه حقيقة لا سبيل الى اخفائها أو انكارها ، فالمعروف كما أثبت التاريخ أن المماليك حين هزموا أمام جحافل الفرنسيين غادروا مصر ، فمراد بك اتجه الى الصعيد ، وابراهيم بك اتجه الى الشرقية ثم غادرها الى سورية ، وأصبح عبء الدفاع عن البلاد موكولا الى أهلها والمصريون هم في واقع الأمر أحق الناس بالدفاع عن بلادهم ، وأحق الناس بصد العدوان عنها ، وأحق الناس بالحفاظ عليها حرة مستقلة ولقد قام المصريون بدورهم في شجاعة وصبر ، فقد كانوا يقاتلون عدوا يفوقهم في الفن الحربى ويفوقهم في كثرة السلاح وغزارته ، واستطاعوا أن يتموا الدور ، وأن يحققوا أملهم في التخلص من الفرنسيين حين أجبروا الحملة الفرنسية على مغادرة البلاد في أكتوبر سنة ١٨٠١ ، ولم يمض على نزولهم بها ثلاث سنوات .

عوامل الكراهية للفرنسيين

سبق القول أن البلاد لم تقبل خضوعها للفرنسيين لانها نظرت اليهم نظرتها الى قوم محتلين أرادوا أن يسلبوها حريتهـا واستقلالها وأن يتخذوا منها السبل المختلفة لتحقيق أهدافهم ومطامعهم ، وقلنا ان العامل الوطنى كان الدافع الأول بل الدافع الاكبر لثورة المصريين ضد الفرنسيين ، كان هو القوة المحركة لمشاعرهم وعواطفهم والنار التى اشتعلت فى جنباتهم، والوقود الذى زادهم انفعالا واندفاعا .

ولقد قامت بجانب هذا **العامل الوطنى** عوامل أخرى كانت من أسباب ثورة المصريين ضد الفرنسيين ، فبرغم ما وعدت به القيادة الفرنسية من مراعاة مشاعر الاهالى ومصالحهم ، وعدم مس هذه المصالح ، وقعت القيادة الفرنسية فى أخطاء متعددة أدت الى زيادة البركان ، والى امتداد الثورة ، والى تكتل المصريين جميعا .

١ ـ ولعل **فرض الضرائب** كان من الأخطاء الجسيمة التى وقع فيهـا الفرنسيون . فالمتتبع لظروف البلاد الاقتصادية فى عهد ما قبل الحملة الفرنسية ـ ونعنى به عهد المماليك ـ يلمس بوضوح وجلاء أن الفلاحين ـ وهم الغالبية العظمى للسكان ـ كانوا يعيشون فى مذلة محرومين من خيرات أرضهم ، يملكون النذر اليسير من الاراضى يتوارثونها ولكن ملكيتهم كانت معلقة على دفع الضرائب والاتاوات المفروضة عليهم للملتزمين الذين كانوا هم الملاك فى حقيقة الامر ، فقد كانوا يتصرفون فى الارض تصرف المالك فى ملكه ، ويبسطون أيديهم على ما يروق لهم منها ، وكذلك كان التجار يشكون مر الشكوى من مصادرة متاجرهم ومن خضوعهم لنظام ضرائبى يثقل كاهلهم ، وكانت الضرائب عبئا ثقيلا على جموع الشعب ، وكانت كثيرة متنوعة ، وكذلك الاتاوات على الصـناعات والمأكولات والمتـاجر ، حتى أن المسيو « ستيف » أحصى دخل الحكومة فى أواخر عهد المماليك بمبلغ ٤٦٧ر٢٠٣ر١ جنيها وهذا المبلغ يبين فى وضوح اسراف حكومة المماليك فى المظالم وارهاق الاهلين بمختلف الاتاوات والضرائب ، مما أدى الى سوء الحالة الاقتصادية فى البلاد .

وعندما جاء الفرنسيون لم يقوموا بدراسة أحوال البلاد الضرائبية دراسة سليمة ، فقد كان همهم الاكبر جمع ما يستطيعونه من مال يواجهون به نفقات الحملة ، ولهذا أنشئوا فى كل مديرية مكتبا لتسجيل العقود ،

اذ أعلنوا عدم اعترافهم بالملكية الا اذا سجلت بعقود وسندات وفرضوا رسوما على التسجيل ، لم تكن مفروضة من قبل ، كما أنهم أعلنوا أن الملكية التى لا تسجل فى خلال ثلاثين يوما تنتزع من أصحابها وتصادر لجانب الجمهورية الفرنسية ، كما قرروا تسجيل عقود البيع والبدل والتنازل والهبة فى مدى عشرة أيام من تحرير العقد والا اعتبر باطلا ، وفرضت على هذا التسجيل أيضا رسوم ، وهذه الرسوم كانت ضرائب جديدة لم يتعودها الاهالى من قبل ولم يدفعوها ، ولهذا ضج منها الاهالى .

كما فرض الفرنسيون ضرائب سنوية على جميع أصحاب الحرف والصناعات مما جعلهم يسخطون على الاوضاع الجديدة التى أثقلت كاهلهم بضرائب جديدة ، ونظر المصريون الى هذه الضرائب على أنها وسيلة لسلب ومصادرة أملاكهم ، أو كما يقول الجبرتى « تحايل على أخذ الاموال » ، وكان تقرير هذه الضرائب من أهم الاسباب التى نفرت المصريين من حكم الفرنسيين وجعلتهم يتباحثون فى أمرها ، ويفضون الى أنفسهم بالشكوى المرة ، ثم يتجهون بعد ذلك الى الاندفاع فى طريق الثورة ضدهم .

٢ ـ وواضح من تاريخ الحملة الفرنسية على مصر أن الفرنسيين صدموا حين جاءوا الى مصر ، فقد كانوا يتوقعون أن يجدوا فيها صورة لما وجدوه فى سهول لمبارديا ، وما وجدوه فى مختلف أنحاء البلاد التى غزوها من الرفاهية ورغد العيش ، فلما وجدوا فى مصر الصحراء القاحلة والحر الشديد تبرمت نفوسهم ، وضعف فيهم احساس النضال العسكرى والشعور بالواجب ، وتراخى الضباط فى كبح جماح جنودهم ، فأنطلق هؤلاء يعتدون وينهبون ويخربون ... وتعرضت البلاد لموجة عنيفة من الارهاب والتعدى والتخريب والنهب مما أثار غضبة الاهالى وأشعل فى نفوسهم الرغبة فى الانتقام ، ووصف الجنرال « بليار » فى يومياته تصرف الجنود الفرنسية فقال : « ان روح التذمر سائدة فى الجيش ، والضباط لعدم اكتراثهم بالواجب تركوا الجنود يجوبون القرى ينهبون كل ما تصل اليه أيديهم » وجاء فى يوميات الجنرال « لوجييه » : « وصلنا يوم ١٤ من يوليو الى قرية النخيلة فى حين كان جنود الجنرالين « بون » و « فيان » ينهبونها ، وكان صياح الاهالى وبكاء النساء ونحيبهم يصم الآذان ... ولاقى الجنرال « دوجا » صعوبات كبيرة فى القيام بمهمته ، لان الضباط كانوا يتذمرون من قلة الزاد ، وكانوا لا يقاومون تمرد الجنــود » ، وجاء فى يوميات الكابتن « سافاى » ، « صادرنا بعض المواشى التى وجدناها فى طريقنا ، وبينما كانوا يقيدونها كان الجنود ينهبون هذه القرية (الطرانة) ويخربونها ... وان فرقتنا لم تكن تعمل سوى اتمام خراب القرى التى كان يمر بها الجيش » ، وكتب الجنرال « بليار » يقول : « لم يأسف الجنود لانهم لما لم يجدوا أحدا فى البيوت وضعوا أيديهم على ما وصلت اليه من المتاع وأخذوا منها ما راق لهم أن يأخذوه » .

هذه الاقوال لهؤلاء الضباط الفرنسيين دليل واضح لا يحتاج الى برهان على ما قام به الفرنسيون من تخريب وتدمير ونهب وسلب ، وكيف يرضى المصريون اذن وقدوقعت هذه الأمور فى بلدهم وفى ممتلكاتهم

وفي أرزاقهم ؟ ، كيف يقبلون السكوت واتخاذ موقف سلبي تجاه هـذه الحوادث المثيرة ، وتجاه هـذا الخراب الشامل لجميع نواحي حياتهم والمصريون قوم عاشوا حياتهم أعزة كرماء لا يخافون ضيما ولا يذلهم ظالم ولا يخضعون لجبروت ، ومن أجل هـذا ثار المصريون ، وأقلقوا مضاجع الفرنسيين ، وأنزلوا بهم من الخسائر ما فاق خسائرهم في الميدان .

٣ ـ ونقطة ثالثة لابد لنا عندها من وقفة . فالفرنسيون حين استقر لهم الامر في البلاد أصدروا أوامر الى المصريين بحمل الشارة الفرنسية ، فقد طلب نابليون أعضاء الديوان الى داره ذات يوم (الاول من سبتمبر سنة ١٧٩٨) فلما استقر بهم المقام أراد أن يلبسهم طيلسان الجمهورية الفرنسية ذا الالوان الثلاثة ، ووضع بيده الطيلسان على كتف الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان تكريما له وتعظيما فرمى به الى الارض محنقا وغاضبا واستعفى من الديوان وحاول نابليون أن يقنع الأعضاء بلبسه فرفضوا ... وأصدر نابليون أوامره في هذا اليوم أن يحمل سكان مصر الشارة وأن ترفع الراية الفرنسية على السفن فأبى المصريون جميعا قبول هذا الامر ورفضوا تنفيذه ، فكيف لمصرى يعتز بقوميته وبوطنه أن يقبل وضعا كهذا ويظهر للفرنسيين بهذه الصورة المهينة له ولكرامته وكرامة وطنه لقد أبى المصريون هذا ورفضوه في شدة مما أثار الفرنسيين ، فبدءوا يتصرفون في صورة ماسة بطبيعة المصريين مما جعلهم يثورون ضدهم محافظة منهم على طبيعتهم التى تعتمد أول ما تعتمد على كرامة المصرى وشرفه وحريته .

٤ ـ ثم كان بعد ذلك **موقف الفرنسيين من حاكم الاسكندرية محمد كريم** ، فقد ارتابت القيادة الفرنسية في نياته واتهمته بخيانة الفرنسيين وردت اليه كل أسباب الهياج والعصيان في نفوس الاهالى وجعلت منه الرأس المدبر لكل عمل يتسم بالمقاومة ، فألقت القبض عليه ووضعته فوق احدى السفن ، ثم نقل الى رشيد ومنها بعث به الى القاهرة حيث سجن ، وتولى الجنرال « ديبوى » التحقيق معه وأثبت عليه الاتهام وصدر أمر نابليون في ٥ من ديسمبر ١٧٩٨ باعدامه رميا بالرصاص ومصادرة أملاكه وامواله ، وسمح له أن يفتدى نفسه بدفع غرامه تصل الى ٣٠ ألف ريال في ٢٤ ساعة فرفض محمد كريم أن يدفع المبلغ ، وحاول بعض الفرنسيين اقناعه بدفع الغرامة ، ومن هؤلاء « فانتور » الذى قال له « انك رجل غنى فما يضيرك أن تفتدى نفسك » فأجابه محمد كريم « اذا كان مقدورا على أن أموت فلا يعصمنى من الموت أن أدفع هذا المبلغ ، واذ كان مقدرا لى الحياة فعلام أدفعه » ونفذ فيه حكم الاعدام في ٦ من سبتمبر ١٧٩٨ .

ولا شك في أن موته أثار غضب المصريين ، فقد كانوا ينظرون اليه نظرتهم الى زعيم وطنى وعالم دينى ورجل قل أن يجود به الزمن ، وصور « تيبودو » في كتابة تاريخ نابليون أثر اعدام محمدكريم بقوله « ان اعدام هذا الشريف هو اول عمل من التصرفات المتعددة التى وجهت فيها التهم الى نابليون في أثناء حملة مصر ، فان النفوس الحساسة قد تأثرت للخاتمة المحزنة التى انتهت بها حياة ذلك الشريف النزيه الذى أعدم بأمر القائد العام » .

هكذا تهيأت النفوس للثورة ضد الفرنسيين ، وهكذا استعد المصريون جميعهم رجالا ونساء وأطفالا وشيوخا وشبانا وتجمعوا جميعا حول فكرة واحدة آمنوا بها ايمانا عميقا وهى تخليص مصر بلدهم العزيز من ظلم الفرنسيين واحتلالهم .

هبت البلاد كلها تقاوم الحملة الفرنسية وتقاوم أطماع نابليون وتقف فى وجه الطغاة الظالمين وتصد عن نفسها مظالمهم وجبروتهم محاولة أن تبتعد بنفسها عن وحشيتهم ، وأن تنقذ نفسها من اعتداءاتهم الآثمة .

وظل النضال الشعبى ضد الحملة الفرنسية مستمرا منذ اللحظات الأولى التى وطئت فيها أقدام الفرنسيين أرض الوطن ، مما عجل بانتهاء الحملة وطرد الفرنسيين .

ولم يكن النضال الشعبى مقصورا على فئة معينة ، وانما اجتمعت فيه كل القوى الوطنية من الفلاحين الى العمال الى الصناع الى التجار الى العلماء، واندفعوا جميعا فى طريق الزحف الثورى يستهدفون أمرا من اثنين ... القضاء على الفرنسيين وتخليص البلاد منهم أو الذود عن البلاد بالمهج والارواح .

واشتعلت الثورة فى كل مكان فى الوجه البحرى ، وفى القاهرة وفى الوجه القبلى ، وعاش الفرنسيون فى أزمات متلاحقة متتابعة وقد أذهلتهم الروح الوطنية المتوثبة التى فارت ضدهم كالطوفان ، ولم يقتنع المصريون بخروج نابليون ، ولم يهدءوا حين غادر الاراضى المصرية وانما ظلوا فى دفعهم الثورى ونضالهم الشعبى فى عهد خليفته ، كليبر الذى دفع حياته ثمنا لصموده أمام التيار الوطنى ، ومينو الذى انتهى فى عهده أمر الحملة الفرنسية .

الباب الثالث
الكفاح الشعبى فى الوجه البحرى

النضال الشعبي في الوجه البحري

كان من الطبيعي أن يبدأ النضال الشعبي في الوجه البحري ، فهو أول جزء من الاراضي المصرية تهبط فيه قوى الفرنسيين ، ولهذا كان أسبق المناطق المصرية الى مناوشة الفرنسيين ، ومقاومتهم ..

١ ـ أوفد نابليون الجنرال « دوجا » لاحتلال رشيد ، فتقدم واحتل أبو قير ثم رشيد ، وكان عليه بعد ذلك أن يتجه عن طريق النيل الى الرحمانية ، وترك فى رشيد حامية بقيادة أحد الضباط ويدعى « سان فوست » حتى يصل الجنرال « مينو » الذى عين حاكما لرشيد ، فاجتمع أهالى المدينة وقرروا فيما بينهم اقامة حكومة أهلية ، واختاروا لها ثلاثة من خيارهم وجعلوهم فى مقام الحكام ، فلما وصل مينو الى رشيد لم يستطع أن يتفاهم مع الاهالى فطلب امداده بقوة من الجنود ، وذكر فى طلبه أن العرب يزعجونه على الدوام ، وأن الاهالى لا يخلدون الى الطاعة ، وأنهم دائما ثائرون ٠

وواجه مينو مصاعب كثيرة حتى أنه حين بعث برسالة الى نابليون مع الكولونيل « داماس » هاجمه أهالى « مطوبس » و « أدفينا » وأطلقوا على سفينته الرصاص فعاد دون أن يتم مهمته ، وحدث أيضا أن أرسل الجنرال مينو بعض جنوده الى نابليون يحملون اليه البريد فخرج اليهم أهل السالمية وهاجموهم وقتلوا منهم ثمانية ٠

وحاول مينو فى ١٢ من سبتمبر أن يقوم بجولة في شمال الدلتا واصطحب معه الجنرال « مارمون » وبعض علماء الحملة وكتيبة من الجند تبلغ ٢٠٠ من الجنود ، وعند قرية « شباس عمير » خرج الاهالى يقاومون القوة وأطلقوا عليها الرصاص ، وقتل الفنان « جولى » ، وتراجعت الكتيبة ثم عادت من جديد الى القرية ، وكان الاهالى قد احتلوا سورها وأبراجها الحصينة ، وظلوا يطلقون النار ، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين . وأدرك مينو خطورة الموقف وخاصة أن رصاصة أصابت جواده ، فأمر جنده باضرام النار فى القرية ، وجاء أهالى القرية المجاورة ينجدون اخوانهم ، حتى بلغت الجموع ثلاثة آلاف من الفلاحين ، وتحت الضغط العنيف عاد مينو بكتيبته الى المدينة ثم الى دسوق ثم الى رشيد بعد أن فقد عددا كبيرا من رجاله ..

٢ ـ فى ١٧ من يوليو ١٧٩٨ علم المصريون من أهالى البحيرة أن كتيبة فرنسية يقودها الجنرال « ديبوى » قد كلفت الطواف فى المديرية قادمة من الاسكندرية قاصدة دمنهور ثم رشيد ثم أبو قير ، ثم الاسكندرية

للاطمئنان على سلامة مواصلات الجيش الفرنسي ولصيانة المواقـــع المهمة للجيش ، فهرب الاهالى الجمال حتى لا يستعين بها الفرنسيون وامتنعوا عن تزويد القوات الفرنسية بالماء والزاد ، واستعدوا لمهاجمتها ، فاجتمع لهذا الغرض عدد كبير من رجال البحيرة ، وتربصوا بالفرقة ثم هاجموها في مواقع مختلفة ، وأطلقوا عليها الرصاص ، وشتتوا جموعها ، وأنزلوا بها خسائر فادحة ، ولقيت الكتيبة عنتا ومشقة اذ قابلهـــا الاهالى بكل ما استطاعوه من ألوان المقاومة .

وفي دمنهور ووجهت الكتيبة بستة آلاف مصرى معدين للقتال غصت بهم الطرق والشوارع ، وتغطت بهم أسطح المنازل مما أجبر قائد الكتيبه على الانسحاب الى بركة « غطاس » حيث تعرضوا لهجوم آخر في رشيد ، مما دعا الى انسحابها الى الاسكندرية مضعضعة منهوكه القوى ، والمصريون من خلفها يطاردونها وينزلون بها الخسائر الفادحة .

٣ — تحرك الجنرال « لكليرك » في ٢ من أغسطس ١٧٩٨ من القاهرة متجها الى بلبيس، فاحتل القبة ، والمطرية ، والمرج ، والخانكة ؛ وأبوزعبل حيث تصدت له قوة من المصريين المسلحين بالبنادق والعصى ، واستطاعت هذه القوة أن توقف تقدم الكتيبة ، ثم تجبرها على الانسحاب الى الخانكة ، ثم بعد ذلك أخذت تطاردها وتتعقبهـــا وهاجم الاهالى المخـــافر الامامية لمعسكر الخانكة وكان هجومهم عنيفا ، اذ انضم اليهم عدد من فرســـان العرب وحشد كبير من الفـــلاحين الذين كانوا يحملون أسلحة خفيفة ، وأحاط الاهالى بالفرنسيين ، وأطلقـــوا عليهم النيران ، فأدرك الجنرال « لكليرك » الخطر ، وخاصة أن أهالى قرية الخانكة — حيث يدور القتال — قد تجمعوا هم الآخرون وخرجوا يشدون من أزر اخوانهم المصريين فاستقر رأى « لكليرك » على اخلاء الخانكة ، وارتد فعلا الى المطرية ، ثم اخلاها الى المرج .

ثم جاء نابليون ومعه فرقة الجنرال «دوجا» والجنرال «لان» والجنرال « رينيه » وتقدم الى بلبيس ، فلما أحس الاهالى بعظم القـــوة المتحركة هجروا قراهم ، وعندما دارت معركه الصالحيه بين نابليون والمماليك وقف المصريون بجانب المماليك يشدون من أزرهم حتى هزم المماليك وغادروا البـــلاد .

٤ — عين الجنرال رينيه قومندانا لمديرية الشرقية واتخـــذ مسجد الصالحية مركزا عسكريا له ، وحاول أن يتفاهم مع أهالى المنطقة ، ولكنهم لم يأمنوا جانبه ، وأخذوا يمنعون عنه المواشي ، ويحملون السلاح فى وجهه واضطربت الاحوال فى الشرقية ، وظـــل الاهالى يناوشـــون الحاميات الفرنسية ، ويهددون مواصلاتهم مع القاهرة وبدأ الثوار يهاجمون المواقع الفرنسية ، وقتلوا ترجمان الجنرال ، واستغل الاهالى فرصة الفيضـــان وتعطل الفرنسيين عن الحركة ، وازدادوا عنفا فى مهاجمتهم للفرنسيين ، حتى أن جموعا كبيرة هاجمت معســـكر بلبيس فى ٢١ من اكتـــوبر ، واستطاع الجنرال « رينيه » رد هجوم المصريين ، ولكنه اضطر الى التراجع الى داخل المدينة واستمرت هجمات الاهالى تقلق بال الجنرال ، وأصبحت

مواصلاته مهددة فلجأ الى نابليون يطلب منه العـــون فأمده بقوات أخرى استطاعت الى حد ما أن تعيد الامن والهدوء الى ربوع الشرقية .

٥ ــ كان نابليون قد أسند مهمة صيانة الامن فى القرية الى الجنرال « فوجيير » ، وعندما تحرك الجنرال قاصدا الغربيه اصطدم بقوات الاهالى التى تجمعت عند «غمرين»، و «تتا» وقدحملوا السلاح وواجهوا الفرنسيين، وحاول الجنرال بوسائل متعددة أن يفتح الطريق أمام قواته ولكن أعجزته قوة المقاومه المصريه ، فاســـتغاث بزميله الجنرال « زايونشك » مدير المنوفية الذى كان يرابط بالقرب من منوف ، وتعاونت القوتان معا ضد الاهالى فى « غمرين » واستمر القتال عنيفا حتى تغلبت القوة الفرنسية . فعاود الاهالى القتال فى «تتا» وتغلبت قوة الفرنسيين، ولكن بعد أن نفدت ذخيرتهم وأصيبوا بخسائر فادحة وبلغ بهم الحمق والغضب درجه بعيدة عن الانسانية ، فأشعلوا النار فى القريتين ووصــف الكابتن « فيروس » القتال الذى دار فى القريتين وأهم ما جاء فى وصفه « أن عددا من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة واقدام » وهـــذه شهادة لها أهميتها فى تاريخ نضالنا الشعبى لانها تقر بأن نضالنا لم يكن مقصــورا على الرجال وانما أحست النساء بمسئوليتهن تجاه وطنهن فخرجن يشاركن الرجال فى الكفاح والنضال ، شأنهن فى ذلك شأن أعظم الابطال .

٦ ــ فى أوائل اكتوبر ١٧٩٨ ظهرت بوادر الثورة فى طنطا اذ قرر أهلها الامتناع عن دفع الضرائب والغرامات التى تفرض عليهم ، فأرسل نابليون الكولونيل « لوفيفر » الذى ألقى القبض على أربعة من ائمة السيد البدوى ، ووضعهم فى مركب يتجه بهم الى القاهرة ، وكان من سوء حظ الفرنسيين أن الاهالى فى طنطا كانوا يحتفلون بمولد السيد البدوى ، فلما أحسوا بما أقدم عليه الكولونيل الفرنسى هرعوا بالبنادق والحراب رافعين الرايات والبنادق الى حيث يوجد الكولونيل ، وانضمت اليهم جموع كبيرة من أهالى البلاد المجاورة مما اضطر الكولونيـل الى التزام خطة الدفاع ، وبعد معركة استمرت أربع ساعات استطاع الكولونيل أن يسحب معـظم قواته بالسفن التى أقلعت وتركت المنطقة ، وكاد الجنرال « فوجيير » أن يوقع نابليون فى خطأ كبير حين بعث اليه يطلب معـــاقبة أهالى طنطا ، فطنطا لها مكانتها الدينية لوجود ضريح السيد أحمد البدوى بها ، وكان الفرنسيون ينظرون اليها كمدينة مقدسة عنــــد المصريين ، ولهذا رفض نابليون ما عرضه عليه الجنرال قائلا «انني راغب فى احترام هذه المدينة ، وأعتبر تخريب هذا المكان المقدس كارثة كبرى فى نظر الشرق » .

٧ ــ كان فى قرية « عشما » رجل مشهور يسمى « أبو شعير » وكان يعتبر من أعيان المنطقة ، وأعلن هذا الرجل عداءه للفرنسيين ، وأخذ يجمع الاهالى ليقاتل بهم الجنود الفرنسية ، فسارت اليه حملةعلى رأسها الجنرال « لانوس » فى ٢٠ من أكتوبر ١٧٩٨ وحاول الجنرال أن يتفاهم معه الا أن «أباشعير» جمع رجاله وحصن القرية وأمد الفلاحين بالسلاح، وانتظر قدوم لانوس وعند وصوله فتحت عليه النيران ، وبذل أبو شعير ورجاله جهدا كبيرا فى مقاومة الفرنسيين ، واستطاع هؤلاء أخيرا اســـتنادا الى كثرة

عددهم ، ووفرة سلاحهم ، أن يقضوا على قوة أبي شعير وأن يقتلوه وأن يقبضوا على اثنين من اخوته وبعض من أولاده وحاشيته ثم قتلوهم ٠

٨ ـ ظن الجنرال « فيال » قائد مديريتي المنصورة ودمياط أن الامر قد استتب له بدخوله مدينة المنصورة ، ولكن أهالى المنصورة لم يكونوا أقل وطنية من أهالى مناطق الوجه البحرى ، فعندما استقر جنوده في معسكرهم تجمع كثير من أهالى المدينة وكثير من أهالى البلاد المجاوره واتفقوا فيما بينهم على الفتك بجنود الحامية ٠

وفى ١٠ من أغسطس ١٧٩٨ قامت المدينة كلها رجالا ونساء دفعة واحدة ضد الفرنسيين وحاصروا معسكرهم وبدءوا فى مهاجمته ، وأشعلوا فيه النيران ، فتركه الجنود وولوا هاربين واتجهوا الى السفن فى النيل يبغون الفرار ، وحالت الجموع الوطنية بينهم وبين ركوب النيل ، فعادوا الى البر ، وسلكوا الطريق الى دمياط ، الا أن الثوار قطعوا عليهم الطريق ، وقتلوهم عن آخرهم الا ثلاثة جرح واحد منهم ، وأسر اثنان ٠

وأسر الاهالى أيضا امرأة أحد الضباط وتدعى « مرجريت » وابنتها وتسمى « جوليا » ، وهنا تظهر الاخلاق المصرية المجيدة ، اذ حافظ الثوار وهم فى غضبتهم وثورتهم على المرأة وابنتها ، وتزوج شيخ العرب « أبو قورة » الفتاة وعاشت فى كنفه حتى مات عنها وظلت هى حافظة لعهده بعد وفاته ٠

واشتعلت نيران الثورة فى البلاد المجاورة واتسع مداها واستفحل أمرها ، وأسرع نابليون فأرسل الى المدينة الجنرال دوجا (١٧ ، ١٨ من أغسطس) ، واستطاع أن يعيد الامن الى نصابه ، ولكن بعد عناء كبير فقد قوبل بمقاومة عنيفة ، وامتنع كثير من الاهالى عن دفع الضرائب ، ويقول ـ ريبو ـ ان محصلى الاموال الاميرية كانوا اذا ذهبوا الى القرى لجباية الضرائب ، أو لمصادرة أموال المماليك يقابلون بالرصاص رميا ، أو بالعصى ضربا » ٠

ووصل الى علم الجنرال دوجا أن بلدة سنباط كانت ذات باع طويل فى ثورة المنصورة ، فقرر أن يهاجم هذه البلدة ، وأن يقوم بحرقها تنفيذا لأوامر نابليون ، وفى طريقه الى سنباط التقى بقوة من العرب ، فأوقعوا بقوته خسائر فادحة ٠

وفى هذه الاثناء تجددت الاضطرابات فى منطقة « دنديط » ، وميت غمر ، وميت الفرماوى وأصبحت المواصلات النيلية فى فرع دمياط مهددة ، وأمر نابليون الجنرال « مورا » والجنرال «لانوس» بالتعاون لاخماد هذه الاضطرابات ، والتقى القائدان فى ميت غمر وتقدما لمهاجمة الثوار الذين قطعوا جسور الترع فغمرت المياه الاراضى ، وبوغتت القوة الفرنسية بالمستنقعات التى عاقت تقدمها ، وانسحب الثوار فى هذه الاثناء الى ميت الفرماوى حيث قاوموا الفرنسيين مقاومة عنيفة ثم اعتصموا بالتلال الغربية ، ثم انسحبوا الى الهوابر ، وكان الفرنسيون قد نالهم الكثير من الاعياء فعجزوا عن متابعتهم ، وعادوا الى ميت غمر ، ووصف

« ريبو » الاضطرابات التى قامت فى المنطقة بقوله (كانت الثورة كحية ذات مائة رأس كلمـــا أخمدها السيف والنار فى ناحية ظهرت من ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت ، فكأنما كانت تعظم ويتسع مداها ، كلما ارتحلت من بلد الى آخر » ، وقال فى موضع آخر « قد فوجئت مصر بالحملة الفرنسية فأخذت تنتفض وتتجاذب لتتخلص من قبضة الفاتــح الحديدية وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محرريه فقد قامت سلطتنا على القوة لا على الاقنـــاع وكانت سياستنا قائمة على اكراه الشعب على الاذعان بالحزم مرة وبالقوة مرة أخرى » .

٩ ـ كان اقليم المنزلة يخضــــع لزعامة رجل من المصريين يسمى « حسن طوبار » ، وحسن طوبار كان من وجهـــة نظر الفرنسيين زعيما للمحرضين على الثورة ، وخصما عنيدا لا يســـتهان به ، ومدبرا لحركات المقاومة ، فبعثوا اليه بالجنرال داماس لاخضاع منطقة بحـيرة المنزلة التى بدأت فيها الاضطرابات ، وقد وصف « ريبو » سكان المنطقة بقوله « قوم أشداء ذوو نخوة ولهم جلد وصبر ، وهم أشد بأسا وقوة من سائر المصريين ثم هم أغنياء بما ينالون من الصيد ، ولهم فى البحيرة خمسمائة مركب أو ستمائة ، تجعل لهم السيادة فى البحيرة ولهؤلاء أربعون رئيســا ، وكل هؤلاء الرؤساء يتبعون حسن طوبار وهو الزعيم الأكبر لهـذه المنطقة » ، وقال الجنرال « أندروسى » ، « حسن طوبار من أكبر أغنياء القطر المصرى وله سلطة واسعة تقوم على مكانته فى النفوذ وثروته وعصبيته من ذوى قرباه وأتباعه » .

وصدرت الأوامر للجنرالين « داماس ، ودستنج » بأسر حسن طوبار وتحطيم أسطوله ، ولما علم الاهالى بتحرك القوة الفرنسية ١٦ من سبتمبر ١٧٩٨ أخلوا قرية منية محـــلة دمنة وكذلك قرية القباب الكبرى ، وعاد الجنرال دستنج الى المنصورة ، واستمر الجنرال داماس متقدما الى المنزلة ليتمم المهمة المكلف بها ومعه ثلثمائة جندى بأسلحتهم وذخيرتهم ، وأمده الجنرال دوجا بعدد آخر من الجند وهو فى قرية «المرساة» ، وتابع تقدمه الى ميت السودان والدراكسة وبرنبال الجديدة وعندما أصبح تجـــــاه الجمالية تعطلت سفنه فى بحر اشمون لقلة المياه به ، وكان هذا التعطل فرصة ألقتها المقادير أمام الاهالى الوطنيين ، فاستغلوها وهاجموا السفن الفرنسية وأطلقوا النار عليها ، كما أمطروها بوابل من الحجارة ، واستمر القتال أربع ساعات ، وأحس الجنرال داماس بصعوبة الموقف وخطورته فأضرم النار فى قرية الجمالية ، وعاد الى المنصورة ، ووصف أحد ضباط الكتيبة ويسمى « جازلاس » المعركة بقوله « لما وصلنا بحرا تجاه الجمالية وهى قرية كبيرة على الشاطىء الغربى من بحر أشـــمون ، فوجئت السفن التى كانت تقل الجنود بعاصفة من الاحجار والرصاص انهالت من أسوار البلدة وبيوتها ، وفى الوقت نفسه رأينا جموعا كثيرة من العرب والمماليك والفلاحين مسلحين بالبنادق والسيوف والعصى تهرع من الجهات المجاورة الى مهاجمتنا ، وكان بعضهم ممتطيا الخيل ، وأكثرهم مشــاة ، فدهشنا لهذه الهجمة العنيفة ونزلت الجنود حاملة سلاحها الى البر الشرقى المقابل للقرية وتأهبوا للقتـــال منتظرين قدوم الاهالى ، فرأينا أكثرهم شجاعة

يغامرون بأنفسهم ويهجمون الى أن يصبحوا فى وسط جنودنا وقد رأيت بنفسى جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح سوى العصى يهاجموننا بحماسة ... » .

وبانتهاء هذه الحملة بدأت المفاوضات بين القادة الفرنسيين وبين حسن طوبار ، فقد أحسوا به قويا ، يثير البلاد ضدهم ويشعل الناس حماسة للمقاومة ، واتصل به الجنرال « فيال » فى دمياط وطلب منه أن يحضر اليه ليتسلم بعض الهدايا باسم نابليون ، فرفض حسن طوبار وأعلن استياءه لحرق الجمالية ، اذ كان يعتبرها ضمن حدود حمايته وبدأ يستعد لخوض معركة حاسمة ضد الفرنسيين ، فبعث بأولاده وأمواله الى « غزة » وأخذ يحشد كل ما يستطيع من السفن فى بحيرة المنزلة ، وعلم الفرنسيون أن هناك شبه اتفاق بينه وبين الاتراك للمساهمة معا فى حملة بحرية ضد الفرنسيين ، وذكر الجنرال « لوجييه » ، « لقد تحققنا أن حسن طوبار كان يجوب بنفسه البلاد والطرق على بحر أشمون يحرض الاهالى على الثورة ، وكان يرسل رسله وأتباعه لينظموا المقاومة ضد الفرنسيين ، وكان فى استطاعة هذا الرجل أن يحشد علينا قوات كبيرة» .

وفى أوائل سبتمبر أحس الفرنسيون بنذر الهجوم فطلب الجنرال « فيال » امدادات سريعة يستطيع بها مواجهة الموقف ، وفى ليلة ١٦ من سبتمبر وقع الهجوم المنتظر الذى اشترك فيه أهالى منطقة دمياط بأجمعها، كما اشترك فيه أسطول حسن طوبار ، وتحركت القوة المهاجمةمن الوطنيين الى دمياط لمهاجمة الفرنسيين ، واستمر القتال ليلة متصلة ، واستطاع الجنرال فيال أن يصد المهاجمين ويردهم على أعقابهم ، فاتجه بعضهم الى قرية الشعراء ، حيث تحصنوا بها واتخذوها معسكرا لهم ، ووصلهم مدد عن طريق بحيرة المنزلة وتقدم الجنرال « فيال » بعد أن وصلته قوة جديدة بقيادة الجنرال « أندريوس » للاستيلاء على الشعراء ، واستطاع أن يستولى عليها وعلى بعض السفن ، وأضرم فيها النيران الا أن هذه النيران المشتعلة لم تؤثر فى نفسية المقاتلين وفى سير الثورة ، فقد تفاقمت وامتدت فى البلاد الواقعة بين المنصورة ودمياط ، وتعرضت السفن الفرنسية لهجمات مستمرة قتل فى أثنائها عدد من الجنود والبحارة ، مما حدا بالجنرال « فيال » الى مهاجمة بعض القرى للقضاء على الاهالى الذين يقومون بالغارات على السفن ، ولكنه وجد غالبية القرى خالية من السكان كما حدث فى الظاهرية وكفر المياسرة والزرقا ، وميت الخولى ، والاحمدية ، وشرمساح ، وكفر الزعاترة ، وبعد هذه الجولة الطويلة ، عاد فيال الى دمياط فى ليلة ١٤ من أكتوبر .

ولم يقبل نابليون أن يظل حسن طوبار على ما هو عليه من النفوذ والقوة ، فقرر ضرورة اخضاعه وكسر شوكته وأرسل مددا الى الجنرال دوجا والى الجنرال أندريوس وطلب منهما الاستيلاء على المنزلة والقبض على حسن طوبار ولو بالخديعة وارساله اليه فى القاهرة ، ووضع القائدان خطة للاستيلاء على المنزلة ، فيسير الجنرال داماس بطريق البر من المنصورة والجنرال اندريوس بطريق البحر من دمياط ، وتلتقى القوتان فى المدينة .

وتقـــدم الجنرال أندريوس الى المطرية حيث فوجيء بأسطول من المراكب الشراعية تسعى الى الاصطدام بأسطوله فعاد الى دمياط ، وتعقبته المراكب المصرية ورست بالقرب من « المنية » ، وطالت المناوشات ، وعادت مراكب الاهالى بعد أن تركت احداها لمراقبة الفرنسيين .

أما الجنرال داماس فقد استطاع أن يدخل المنزلة فى ٦ من اكتوبر بعد أن أخلاها الاهالى ومعهم حسن طوبار كما احتل المطرية .

أما حسن طوبار فقد هاجر من البلاد المصرية الى غزة وظل بها الى أن عاد اليها بعد انتهاء الحملة الفرنسيه على سوريه ومات عام ١٨٠٠ ، وقد أشاد الفرنسيون به ، ويسميه أهـــل المنطقة « حسن طوبار الكبير الذى حارب الفرنسيين » .

١٠ ـ سادت البلاد فترة من الهدوء .. كان نابليون خلالها يقوم بحملته المعروفة على سورية ، الا أن هذا الهدوء كان وقتيا ، ولعل الاهالى قد أثقلهم التدمير ، والتخريب اللذان حاقا ببـــلادهم فارادوا أن يمنحوا أنفسهم فرصة ينظمون فيها صفوفهم ، ويستعدون من جديد لكفاحهم ضد عدوهم ، لأن النفوس كانت حتى فى فترة الهدوء متحفزة لثورة جديدة .

وفى مارس ١٧٩٩ ، بدأت الثورة تشـــتعل فى نفوس الاهالى من جديد ، على أثر السياسة التعسفية التى اتبعها الفرنسيون فى البـلاد ، فقد فرضوا الاتاوات ، وصادروا الجمال والحمير والماشية ، ونشروا الظلم مما أدى الى وقوع مصادمات كثيرة فى نواح مختلفة وخاصة فى الشرقية وكانت أشد هذه المصادمات ما وقـــع فى « بردين » اذ خرجت كتيبة من الجنود من بلبيس لمصادرة الجمال والحمير ، ولكن أهالى «بردين» حملوا السلاح واستعدوا لمقاومتها وأحس قائدها بخطورة التجمع الشعبى ، فعاد أدراجه ثم نظم قواته ، وزودها بالجنود والســـلاح ، ورجع الى بردين فى أول مارس ، حيث كان الاهالى على ما هم عليه من الاستعداد ، وما كادت القوة تقترب من القرية حتى انهال عليهم الرصاص ، وبدأت معركة عنيفة استمرت ساعتين هزم خلالها الفرنسيون ، فولوا الادبار ، وتعقبهم الأهالى حتى بلبيس .

١١ ـ استمرت الاضطرابات فى الشرقية حتى كانت ثورة « أمير الحج » مصطفى بك الذى كان نابليون قد عينه أميرا للحج وقربه اليه ، وطلب منه أن يصحبه فى حملته الى ســـورية فتخلف عنه فى الطريق ، واندفع يدعو الى الثورة ومعه الشيخ « سليمان الفيـــومى » ، واستجاب لدعوته كثيرون من أهالى الشرقية ، وانتقلت الدعوة الثورية الى الدقهلية واستطاع أهالى ميت غمر أن يستولوا على عدد من السفن الفرنسية التى كانت تحمل الذخائر والاقوات وبعض المدافع الى الفرنســـيين وامتدت الثورة الى كل مكان فى الدلتـا ، وأدرك الجنرال دوجا خطورة الحالة ، وحاول الفرنسيون تجريد مصطفى بك من أجازة الحـج ، واستعانوا فى ذلك بالديوان الذى استجاب لرغبة الفرنسيين فأصدروا قرارا بعزله من امارة الحج ، وكلف الجنرال «لانوس» قومندان المنوفية السير الى الشرقية ،

وأخذ يطارد مصطفى بك ، واستطاع أن يشتت أنصاره ، واختفى مصطفى بك الذى قيل انه ذهب الى الشام ٠

وفى أواخر مايو تجددت الثـــورة فى القليوبية وفى ميت غمر ، وتعطلت الملاحة فى النيل ، واستطاع الجنرال لانوس ، احتلال ميت غمر، ولكن الثوار اتجهوا الى كفور نجم فتعقبهم لانوس وقضى عليهم ٠

وهنا فوجىء الفرنسيون بانتقال الثـــورة الى البحيرة وأصبحت الاسكندرية ورشيد مسرحا للثورة ، وعاون الاهالى فى هذه المنطقة بعض سفن الاســـطول الانجليزى الذى أخذ يضرب قلاع الاسكندرية ومواقع الفرنسيين من البحر ٠

وفى منطقة رشيد تجمـــع الاهالى ، فجردت حملة عسكرية مسلحة للقضاء على الثورة التى عمت برنبال ، مطوبس ، وشباس‌عمير ، والسعدة، ونتيجة للامدادات الكثيرة التى زودت بهـــا القوات الفرنسية استطاع الفرنسيون أن يقضوا على الثورة فى منطقة رشيد ٠

وشبت الثورة من جديد ، فى بلدة دونة ، اذ ظهر فيها رجل ادعى المهدية ، ودعا الى قتـــال الفرنسيين ، وانضمت اليه قبـــائل أولاد على والهنادى ، ووصلت الجموع الوطنية الى دمنهـور فى ليلة ٢٤ ، ٢٥ من ابريل ، وهاجمت الفرنسيين المتجمعين تحت قيـادة « مارتان » واستطاع الوطنيون القضاء على الحامية الفرنسية بأجمعها ، مما جعـــل الناس فى المناطق الاخرى يسرعون الى الانضمام الى الثوار حتى اذا ما التقى الثـوار بقوة الضابط « ريدون » دخلوا معه فى معركة حامية اســـتمرت خمس ساعات وانتهت بانسحاب الفرنسيين الى الاسكندرية ٠

ولم يسكت الفرنسيون على هذه الهزائم المتـــكررة فجمعوا قوات كبيرة ، دفعوا بها الى مكان الوطنيين حيث دارت معركة عنيفة فى سنهور قرب دمنهور ، وقال ريبو أن رجال المقـــاومة كانوا خمسة عشر ألفا م المشاه وأربعة آلاف من الفرسان ، ودارت معركة أشبه بمجزرة فظيعة ، وأظهر الفلاحون المصريون شـــجاعة فائقة واســـتخفافا بالموت ، وبذل الفرنسيون جهدا جبارا ، واستطاعوا بهذا الجهد أن ينسحبوا من المعركة بعد أن خسروا خسائر فادحة كبيرة ، ووصلوا الى دمنهور . حيث كانت قوات فرنسية أخرى بقيادة الجنرال «لانوس» ، والجنرال «فوجيير» قد سبقتهم الى هناك ، واستطاعت أن تحتل دمنهور ، وأن تقضى على قـــوة المهدى بها ٠

وأخيرا ٠٠٠٠

فهذه هى الصور المتعددة لحركة المقاومة الشعبية لمراحل النضـــال الشعبى فى الوجه البحرى ضد الفرنسيين والمتتبع لهذه الصور يشـــعر بعمق الوطنية وشدة الايمان التى كان يتصف بها المصريون ، فهم كانوا يمثلون شعبا حيا أبى أن يخضع للقوة ، وأبى أن تستغل خيراته ، وأن تنتهك حرماته ، وأن يعيش رجاله عيشة الضيم والذل والمهانة ، فثاروا ثورة عارمة ، فقدوا فيها الكثير ، ولكنهم سجلوا لأنفسهم فى تاريخ الكفاح الشعبى صفحات ناصعة وتاريخا خالدا ، ومجدا تالدا ٠

الباب الرابع

الكفاح الشعبى فى الوجه القبلى

لم يكن للمماليك دور فى المقاومة :

لم يكن سكان الوجه القبلى بأقل وطنية من اخوانهم سكان الوجه البحرى ، ولهذا فعندما استقر الأمر لنابليون فى القاهرة بعد انتصاره فى معركة « الأهرام » ، ثار المصريون القاطنون فى الوجه القبلى — ضد الفرنسيين ، وقاموا بثورتهم فى ذات الوقت الذى قام فيه المصريون بثورتهم فى الوجه البحرى ، ولا عجب فى هذا ، فالمصرى فى الشمال أو فى الجنوب يحس احساسا عميقا بواجبه حيال وطنه ، ويدرك مسئوليته تجاه حريته وسيادته ، والمتتبع لحركة النضال فى الوجه القبلى يدرك فى يسر ووضوح أن هذا النضال كان واقعا على عاتق المصريين وحدهم ، برغم أن المماليك كانوا قد استغلوا حركات النضال الشعبى ، وساهموا فى بعضها رغبة فى أن تستقر الأمور لهم ، ويعود حكم البلاد اليهم ، الا أن المؤرخين أظهروا هذه الحقيقة ، وأكدوا أن دور المماليك فى مقاومة الحملة الفرنسية فى الصعيد كان دورا ثانويا ان لم يكن تافها ، فمراد بك بعد هزيمته فى معركة الأهرام فر الى الصعيد ، واستقر بها ليكون بعيدا عن هجمات نابليون ، لا ليواصل السعى لقهر الفرنسيين وطردهم ، وهو لم يفكر أبدا فى مقاومة الجيش الفرنسى مقاومة جدية ، ولهذا فان معظم ما لقيه الفرنسيون فى الصعيد انما نالهم من الاهالى الوطنيين ٠

وحوادث القتال فى الوجه القبلى تؤكد هذه الحقيقة ، فما من معركة تكون على وشك الوقوع الا ويتركها مراد بك ومماليكه ، ويفرون الى الجنوب ، فمثلا عندما وصل الجيش الفرنسى الى الفشن ، تراجع مراد بك قبل أن يدركه الجيش ، وظل الفرنسيون يتعقبونه ثلاثة أيام وهو ينتقل من قرية الى قرية ، وكذلك أيضا حين تقدمت القوات الفرنسية الى أسيوط فقد انسحب منها المماليك وعندما وصلت الى « دنقيق »، « وطيبة » لم تلق مقاومة ، وعندما تتبع الجنرال « فريان » مراد بك الى أرمنت تركها وفر الى الجنوب ، وظل ينسحب أمام الجيش الفرنسى ، دون أن يلتقى معه فى معركة فاصلة ، وجاء أن الجنرال «بليار» (فى احدى الروايات) سار بجنوده بالبر الغربى للنيل يتعقب مراد بك ولكنه لم يدركه لان المماليك — كما جاء فى هذه الرواية — « كانوا أسرع منه فى السير » ، وقيل فى الحديث عن معركة اسنا (٢٥ من فبراير ١٧٩٩) أن قتالا دار بين الفريقين ، ولكن مراد بك تعجل نهاية المعركة فلم تدم غير ساعة من الزمن ثم تقهقر الى « أرمنت » ٠

ومن هذه الرسائل رسالة الجنرال « ديزيه » الى نابليون يقول فيها « اننا دائما محاطون بالاعداء ، وأن صعوبة المواصلات المهددة دائما بالانقطاع وبعد المسافات تمنعنى من أن أكتب اليك عن أخبارنا بمقدار

ما أرغب ، واننا فى حاجة الى الجنود ، لأن فرقتي قد أنهكهـــا التعب ، واجتاحتها الامراض ، وان من الخطر أن نترك جهة واحدة فى مصر العليا دون أن نحتلها بجنودنا ، واننا لم نستطع أن نشتت أعداءنا الا بمتاعب وحملات شاقة لا هوادة فيها ، والبلاد مــع ذلك مستعدة للثورة ، وانى مضطر الى ارهاق الجنود وجعلهم دائما على سفر » ٠

مقاومة عنيفة واستبسال رائع ٠٠

نخرج من هذا كله الى أن المقاومة فى الوجه القبلى كانت تقع على عاتق الوطنيين من أهل البلاد ، وكانت روح المقاومة تسود سكان القرى ، فلم يكن الاهالى يتركون فرصة تمر دون أن يثـــوروا فى وجه السلطات الفرنسية ، ولقد ذكر مؤرخو الحملة الفرنسية أن المقاومة فى الوجه القبلى كانت أشد عنفا منها فى الوجه البحرى ، وكان الاهالى أعنف مقاومة وأكثر استبسالا ، وكانت المقاومة التى لقيها الجيش الفرنسى فى أنحـــاء الوجه القبلى أشد ما أصاب الفرنسيين لأن طبيعة البـــلاد فى الصعيد ، وبعد المسافات وصعوبة المواصـــلات وأخلاق السكان جعلت الجيش الفرنسى يقابل حركات ثورية ذات صبغة حربية منظمة وفى هذا الصدد يقـــول « دى لاجولكبير » ، « ان المقاومة التى لقيها الجنود الفرنسيون فى الوجه البحرى ، كانت فى الغالب ذات صبغة محلية ولكن فرقة الجنرال ديزيبه (وهى التى وكل اليها اخضـــاع الصعيد) ، هى التى اضطرت أن تواجه حركات حربية حقيقية » ٠

وكتب الجنرال ديزيبه فى فبراير ١٧٩٩ يقول وقد أحس بخطورة الاضطرابات فى الصعيد وبعنف حركة المقاومة وبحرج موقفه « اننا نسير بلا انقطاع وقد ساءت حالة الجنود فى ملابسهم وأحذيتهم وان دعاة الثورة مثابرون على نشر دعايتهم » ٠

ووصلت الى القيادة العليا فى القاهرة رسائل كثيرة وتقارير تحدث فيها مختلف القـــادة عن الخسائر الجسيمة التى نالتهم والذخائر التى نفدت منهم ، وروح العداء التى سادت الاهالى فى تلك البلاد ، حتى أن الفرنسيين كانوا يشعرون دائما أنهم محاطون بالأعداء من كل جانب ٠

الواضح من القتـــال الذى دار فى الوجه القبلى أن المماليك كانوا لا يواجهون الجيش الفرنسى ، بل تركوا عبء القتـــال على عاتق الاهالى وحدهم ، فمراد بك ظل هـــو وجنده بعيدا عن ضربات ديزيبه ، وأثبت تاريخ النضال الشعبى فى الوجه القبلى أن كثيرا من المماليك تركوا زعماءهم وأخذوا يبحثون لانفسهم عن ملجأ فى القرى والمدن ، وأن كثيرا منهم باع سلاحه بل عرض بعضهم نفسه على الفرنسيين ليضموه اليهم ، وقد ذكر « ريبو » أن أحد المماليك عثمان بك حسن طلب من ضباط الجيش الفرنسى أن يأخذوه معهم لأنه كان مجريا وأسره الاتراك فى بعض حروبهم مـــع النمسا وصار بعد ذلك مملوكا ، وانتظم هذا المملوك فعـــلا فى صفوف المقاتلين الفرنسيين وكذلك فعل كثيرون آخرون ويقول «ريبو» ان الفرنسيين قبلوهم فى صفوفهم وصاروا من رجالهم الامناء الشجعان ٠

والملاحظ أن المماليك كانوا دائما يتجنبون الصدام فكانوا ينسحبون من المعركة اذا اشتد لهيبها ، ويبتعدون عن ميدانها قدر استطاعتهم ، هكذا فعلوا فى أبنوب وفى ثورة بنى عدى فانهم كانوا يضنون بأرواحهم ويغادرون أرض المعركة ويعرضون الاهالى للقتل أو الاصابة ، وفى هذا يقول الجبرتى فى وصف موكب المماليك فى بنى عدى ، « ان مراد بك ومن معه ترفعوا أى ابتعدوا الى قبلى ووصلوا الى عقبة الهواء ، وكلما قرب منهم الفرنسيون انتقلوا وقبلوا ، ولقد داخلهم من الفرنسيين خوف شديد ولم يقع بينهم ملاقاة ولا قتال » وقال عن مراد بك « انه يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط فى الاقدام مع عدم الشجاعة، ولم يعهــــد عنه أنه انتصر فى حرب باشرها أبدا على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم » ٠

وتاريخ الحملة الفرنسية على مصر يؤكد حقيقة لا سبيل الى انكارها، ففى الوقت الذى ظل فيـــه المصريون يقاتلون الفرنسيين ويقـاومونهم ويثورون ضدهم ويثيرون المتاعب فى وجوههم أسرع مراد بك فدخل فى مفاوضات الصلح مع كليبر فى ٥ من ابريل ١٨٠٠ وضع بها حدا للعداء المعروف بين المماليك والفرنسيين واعترف به الفرنسيون حاكما على الوجه القبلى يستمد وجوده وقوته من الحكومة الفرنسية ، ولم ينته الأمر بمراد بك عند هذا الحد فانه فى عهد مينو تلقى رسائل من ابراهيم بك ينبئه بقرب تحرك جيش انجليزى عثمانى الى مصر ليخلصهـا من الفرنسيين ، فبعث مراد بك بهذه الرسائل الى مينو مع عثمان بك البرديسى وطلب منه فى حالة المفاوضة مع تركيا أن يحافظ له على الامتيازات التى نالها ، وأعلن أنه سيضع كل قواته تحت تصرف القيادة الفرنسية اذا ما عاد القتال من جديد ٠

وخرج المصريون للقتال ضد الفرنسيين فى الصعيد ، وتميز القتال بعنفه وشدته كما قلنا ، وأدخل المصريون تعديلا جديدا فى خطة مقاومتهم، اذ جعلوها بعد معركة « سيدمنت » مقاومات محلية تقوم أساسا على عنصر المفاجأة ، وكان هذا النوع من المقـاومة أشد خطرا على الجيش الفرنسى ، وقال « ريبو » لم يهدأ للفرنسيين بال ولم يستقر بهم قرار خلال الحملة على الصعيد ، بل كانوا هدفا للمفاجآت والمعارك غير المنتظرة » ، وكان هــذا النوع من الحرب أشد خطرا على الفرنسيين لانهم فقدوا الراحة والطمأنينة، واضطرتهم هذه المقاومة الى مداومة الحملات والرحلات المنهكة للقوى دون أن يتمكنوا من التغلب على خصم لا ينال » ٠

المواطنون جميعا كتلة واحدة ٠٠٠

حمل السلاح ضد الفرنسيين فى الوجه القبلى جميع الوطنيين كمـا حدث فى الوجه البحرى ، ونعنى بذلك أن الرجال والنساء والاطفال خرجوا جميعا من ديارهم وحقولهم متعاونين كتلة واحدة وقلبا واحدا ، مما شكل خطرا جسيما أمام الفرنسيين ، وفى ذلك قال الجنرال « دافو » ، « اننا نستهدف لاخطار كثيرة كلما أوغلنا فى بلاد يحمل جميع أهلها السلاح

ومما هو جدير بالذكر ان النساء والاطفال مع الرجال خاضوا غمار المعارك وأحسوا بدورهم في النضال فأبوا الا أن يسهموا بدورهم في هذه المهمة الوطنية الجليلة ، وفي ذلك قال الجنرال بليار يصف موقف الشعب من حركة المقاومة الشعبية « رأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب ويحثون التراب في وجوهنا » ٠

وكتب الفرنسيين التي أرخت للحملة الفرنسية على مصر تشهد بذلك بل ان أكثرها قد ذكر بالفخر ما حدث في قرية النعناعي ففي هذه القرية عسكر الجيش الفرنسي في انتظار قدوم المدفعية ، وتقدم أحد غلمان القرية وتغلغل في داخل المعسكر ، واستولى على بعض البنادق وخرج مسرعا منه ، فلمحه أحد الجنود وتعقبه ولما أدركه ضربه بالسيف على ذراعه ، وقبض عليه وساقه جريحا الى القائد ديزييه وأخذ الجنرال يستجوب الغلام ، وأذهلته حماسة الغلام وشجاعته ورباطة جأشه فقد كان يجيب عن أسئلته بثبات وقدرة ، وتعجب الفرنسيون حين سألوه عمن حرضه فأجابهم ناظرا الى السماء « ان الله القادر على كل شيء قد أمرني بذلك ، لم يحرضني أحد ، وانما الهمني الله أن أفعل ما فعلت » ، ثم رفع رأسه ونظر الى القائد وقال في هدوء وثبات « دونك رأسي فاقطعوه » ، ودهش الجنرال من شجاعة الغلام الذي لم تكن سنه تتجاوز الثانية عشرة ، وأمر بجلده ثلاثين جلدة ، ولما جلد لم يتأوه حتى أن الجنرال بليار وهو يقص حكايته قال « ان هذا الغلام اذا عني بتربيته كان ذا شخصية نادرة المثال » ٠

هذه القصة التي كان بطلها غلاما حديث السن تبرز اتجاها وطنيا وتوضح مشاعر فياضة بحب الوطن والايمان بحريته وسيادته ، والصورة المشرفة التي ظهر بها الغلام ، لم تكن صورته وحده ، وانما كانت صورة ذات أصول كثيرة تمتلىء بها جنبات الوادي شماليه وجنوبيه تنبىء عن بطولة المصريين وجلدهم واخلاصهم ووطنيتهم ٠

الوطنيون والمماليك ٠٠٠

المعروف من حوادث الحملة الفرنسية بعد أن انتصر نابليون في معركة الأهرام ، وبعد أن استتب له الأمر ، أن مراد بك فر الى الوجه القبلي ، وكان نابليون يحسب لقوته حسابا كبيرا ، ولهذا عهد الى الجنرال ديزييه بتتبعه والقضاء عليه ، هذا فوق أن نابليون رأى في بقاء قوة معادية في الصعيد تهديدا لسلطته ، ومثارا للشغب والمقاومة ٠

وعندما بدأت قوات نابليون تتجه الى الوجه القبلي بدأ الاهالي الوطنيون يتجمعون ويتكتلون لصد قواته ومقاومتها ، وحدث في أثناء هذا التجمع والتكتل ان ارتبطت الى حد ما أعمال المقاومة الشعبية بأعمال المقاومة التي كان يتولاها مراد بك ، الا أن الاهالي الوطنيين ، وهم يتعاونون كما قلنا الى حد ما مع مراد بك ، لم يكن تعاونهم بقصد معاونة المماليك وانما كان استغلالا لأكبر قوة يمكن بها دفع قوات نابليون ٠٠

ان الاهالى كانوا يدركون تمام الادراك أن المماليك كانوا يضنون بأنفسهم ويحرصون على أرواحهم فى ميدان الحرب والقتـــال ، وأنهـــم لا يريدون الا أن يتخذوا من الاهالى مطية لقضاء مصالحهم ، ولهذا أسقطوا الثقة بهم ، وكان فقدان الثقة من أهم الاسباب التى قضت على نفوذ المماليك وسلطتهم فى البلاد ، فلم تقم لهم قائمة بعد الحملة الفرنسية ومما يؤكد ما نذهب اليه أن عدد القتلى من المماليك فى معركة الفيوم لم يزد على أربعة قتلى وعشرة جرحى فى حين بلغ عدد القتلى من الاهالى مائتين ، ولهذا يقول الجنرال ديزييه « ان المماليك على جانب عظيم من الحذر والحرص ، فهم لا يستهدفون للقتل بل يعرضون غيرهم للخطر » .

دور الطبيعة فى المقاومة ...

ولقد ساهمت الطبيعة فى حركة المقاومة ، وأدت مياه النيل دورا كبيرا ، فحين تقل المياه فى النيل تشتد قوة المقاومة نتيجة لتوقف حركة السفن التى كان يعتمد عليها الفرنسيون اعتمادا كبيرا ، كما أنه فى فترة الفيضان كان تقدم الفرنسيين متعذرا واتصالهم بالقرى صعبا وحصولهم على المؤن والزاد ليس بالامر الهين ، لأن مياه الفيضان كانت تغمر البلاد ، فتثير العقبات فى وجه الجيش المتقدم ، كما حدث فى مواقع متعددة نذكر منها على سبيل المثال عودة ديزييه وقواته الى اللاهون فى ١٦ من اكتوبر حين أراد التقدم الى مدينة الفيوم ، لأنه وجد أن مياه الفيضـــــان تعطل مواصلات الجيش الفرنسى .

كما كانت الصحراء عاملا هاما أثقل كاهل الفرنسيين فى حين عاون الوطنيين معاونة فعالة ، اذ تكبد الفرنسيون متاعب شاقة كلما أوغلوا فى الصحراء التى تحيط بمناطق المقاومة ، وأضناهم السير فى الرمال وعلى التلال والآكام القائمة بتلك الجهات ، وكثيرا ما أمسك الفرنســـيون عن متابعة قوات القوميين اذا ما اتجهت هذه القوات الى الصحراء ، ولم تكن هذه القوات تلجأ الى الصحراء خوفا من مقاومة الفرنسيين ، وانمـــا لأن الارض أرضهم وهم فوقها يستطيعون أن يديروا المعركة لمصلحتهم ، أما الفرنسيون فلم تكن لهم دراية بحرب الصحراء ومن هنـــا كانوا يخشون الدخول فى معركة لا يعرفون نتائجها ، وصور ديزييه ذلك فى قوله « لو كانت الحملة التى أخوضها على ضفاف النيل لهان الأمر ، ولكنى أحارب فى الصحراء حيث لا توجد طرق للمواصلات ولا وسائل للنقل » .

وكانت الطبيعة بالمرصاد للقـــوات الفرنسية ، فقـــد كانت رداءة الطقس بالنسبة لهم والمتاعب الكثيرة التى واجهتهم من السير فى الرمال من أسباب انتشار مرض الرمد بينهم ، ولقد انتشر هذا المرض بصـــورة وبائية وفتك بهم فتكا ذريعا ، فقد أصيب ٨٠٠ جندى دفعة واحدة ،
يستفحل حتى أصبح خطره على الفرنسيين يفوق خطر المعارك والحروب ولقد صور ديزييه فى رسالة له الى نابليون خطورة هذا المرض فقال « ان أمراض العيون هنا كارثة فظيعة حلت بالجيش ، فقد حرمتنى الانتفـــاع بألف وأربعمائة من رجالى ، واضطررت أن أسحب منهم وراء الجيش مائة فقدوا بصرهم تماما » .

المقاومة الشعبية :

قلنا ان نابليون عين الجنرال «ديزييه» قائدا للحملة الفرنسية التى كانت تؤلف من ٥ آلاف من المشاة والفرسان والمدفعيـــة والمهندسين المزودين بأحدث الأسلحة والذخائر والمدافع والسفن وأقلعت الحمـلة فى أواخر أغسطس فى حماية بعض السفن المسلحة وسار جزء منهـا برا على شاطىء النيل حتى وصلت الى «اطفيح» وهناك انضمت اليها كتيبـة الجنرال «رامبوند» ثم وصلت الى بنى سويف ، ثم أبو جرج ، ثم البهنسة ثم المنيا ، وفى خلال هذه الفترة لم يحدث اصطدام بين قوات الفرنسيين وبين قوات المماليك لان قوات مراد بك كما سبق القول ، كانت تنسحب قبل خوض أية معركة ضد الفرنسيين ، أما النضال الشعبى ضد حملة نابليون فى الصعيد فقد بدأ بموقعة كبيرة هى موقعة «سدمنت» ثم تلتها مواقع أخرى نتحدث عنها فيما يلى :

١ ـ كان اللقاء الاول بين قوات ديزييه وقوات الوطنيين من أهالى الفيوم فى «سدمنت» وهى بلدة صغيرة تقع غرب بحر يوسف ، فقدتجمع الاهالى فرسانا ومشاة وتحصنوا فى آكام سدمنت ، وقد أعدوا معـدات الهجوم للقضـاء على قوات ديزييـه ، وكان عدد المقـاتلين المصريين يجاوز ضعف الجيش الفرنسى ، وانضم اليهم بعض المماليك ، واتخذ المصريون مواقع حصينة فى المرتفعات بحيث كانوا يسيطرون على أرض المعركة . وفى ١٧ من اكتوبر ١٧٩٨ تحرك ديزييه بقواته لمهاجمة المصريين ، ولما اقترب من مواقعهم قام المصريون بهجوم عام ، وبدأت الفرسان تهجـم (كان عددهم من ٤ آلاف إلى ٥ آلاف) بحماسة منقطعة النظير فى حين كانت الطبول تدق دقات الحرب مما زاد فى حماستهم ، واستطاع الاهالى أن يحيطوا بجيش ديزييه من كل ناحية ، الا أن المدفعيـــة الفرنسية فتـكت بهم وكسرت هجمتهم ، فـلم يخـافوا ولم يفت ذلك فى عضـدهم فأعادوا الهجوم مرة ومرات ، ودامت المعركة ساعات طويلة وكادت تدور الدائرة على الجيش الفرنسى وخاصة أن خسائر جسيمة قد حاقت به . الا أن ديزييه أصدر أوامره بهجوم عام معتمدا على قوة نيرانه واستطاع أن يحرز نصرا كان ثمنه غاليا .

وتحتل موقعة «سدمنت» جانبا هاما من معارك الحملة الفرنسية فى مصر ، فهى لاتقل أهمية عن موقعة الاهرام ، لانها فتحت أمام ديزييـه اقليم الفيوم وهو اقليم غنى تستطيع القوات الفرنسية أن تعتمد عليـه فى شئونها الادارية وخاصة فى ناحية التموين ، ومبلغ الأهمية هنا أن خطوط مواصلات ديزييه من القاهرة كانت طويلة من ناحية ، وكانت مهددة بالقطع من ناحية أخرى ، مما كان يثير أمامه مشكلة خطيرة الا وهى مشكلة تموين قواته وامدادها وتعويض الخسائر فيها .

٢ ـ فى أواخر اكتوبر ١٧٩٨ استقر «ديزييه» فى مدينة الفيوم وأخذ يعيد تنظيم قواته ليستأنف هجومه من جديد وبدأ فى تحصيل الضرائب ومصادرة الغلال وجمع الخيول ، ولكنه قوبل بمقاومة عنيفـة فالأهالى أمسكوا ولم يبذلوا له شيئا مما كان يطلب ، وأحس ديزييـه

بروح التمرد والعصيان ، ويقول فى ذلك الجنرال «دونزلو» «كانت البلاد مستعدة للمقاومة من تلقاء نفسها » فمما لا جدال فيه أن روح الثورة قد سرت فى القرى ، وتقدم ديزييه بقواته لاخماد حركات الهياج والثورة فاحتل « مطرطارس »، « وسيله »، « وسرستنا »، ولقى الفرنسيون مقاومة شديدة فى القرية الاخيرة فسلطوا عليها نيرانهم مما اضطر الاهالى الى اخلاء القريه والسير الى الصحراء، ثم احتلت الحملة بعد ذلك قرية الروضة، وقريه الروبيات .

وفى ١٨ من نوفمبر تجمع الثوار تجاه مدينة الفيوم ، وكان ديزييه قد ترك بها كتيبه من الجند بقيادة الجنرال «روبان» الذى أصيب بالرمد فأناب عنه فى قيادة الكتيبة الكولونيل «هوبلو» وبدأ الثوار فى مهاجمة المدينة تتقدمهم طبول الحرب ، واستطاعوا أن يتغلبوا على الدوريات الفرنسية التى كانت تحرس مداخل المدينة وقدر الجنرال ديزييه عدد المهاجمين بثلاثة آلاف مقاتل ، وقال ريبو : انهم خمسمائة من المماليك وفصيلة من فرسان العرب وألفان من الفلاحين وتقدم الثوار الى منزل على كاشف حيث كان الفرنسيون وتبادل الفريقان اطلاق النار ، وكان الموقف فى جانب الفرنسيين ، فهم كانوا يختفون فى داخل المنزل الذى كان محكم التحصين ويطلقون النيران من النوافذ ومن الاسطح مما جعلهم أقل تعرضا لنيران المهاجمين من ناحية ، وأكثر احكاما فى أطلاق النيران من ناحية أخرى ، وكانت كمية النيران التى تعرض لها الاهالى كبيرة فصدت هجومهم ، ولكن سرعان ماجاءتهم امدادات أخرى من الفلاحين فتقدموا من جديد واستأنفوا هجومهم وقابلتهم نيران العدو قوية كاسحة ، مما أدى الى تقهقرهم مرة ثانية .

٣ ــ فى بداية عام ١٧٩٩ سرت روح الثورة فى المدن الواقعة مابين أسيوط وجرجا ، وصارت هذه المنطقة شعلة من الهياج والثورة . فقد تجمع أهالى ما يقرب من أربعين بلدا وبلغ عددهم سبعة آلاف ، وانضم اليهم بعض من أعوان مراد بك الذى استنجد بأشراف مكة وعرب ينبع وجدة وبعث برسله الى النوبة يستفزون الناس لمقاومة الفرنسيين ، وتصالح مع خصمه حسن بك الجداوى الذى كان مقيما فى اسنا ليوحد الجبهة ضد الفرنسيين ، وتميزت الثورة الوطنية فى الصعيد بنطاقها الواسع ومداها البعيد ، الا أن الفرنسيين أحسوا بقوتها وأدركوا خطرها فقرروا العمل فورا ضدها وقامت بينهم وبين الاهالى معارك كانت أشبه بالمذابح واعتمد فيها الفرنسيون اعتمادا كبيرا على نيران المدفعية ، فى حين كان الاهالى مزودين بأسلحة قديمة .

ففى سوهاج التقى الجنرال «دافو» فى يناير ١٧٩٩ بأربعة آلاف من الفلاحين ، وسبعمائة من الفرسان وأطلق عليهم نيرانا حامية رفعت عدد القتلى الى ثمانمائة .

وظن الفرنسيون أن هذه الكارثة التى حلت بالاهالى ستكون ذات آثار ايجابية فى اخماد الثورة ، ولكن الواقع أن الاهالى استمدوا من هذه الهزيمة دافعا لمواصلة الثورة ، فلم تنكسر شوكتهم ، ولم تفتر عزيمتهم

واحتشدت جموعهم المسلحة على مقربة من أسيوط ، رجالا وركبانا ٠٠ وانضم اليهم مقاتلون كثيرون من المنيا وبني سويف والفيوم ، وكلف الجنرال «دافو» مواجهة هذه الجموع فوصل فى ٨ من يناير تجاه «طهطا» حيث التقى بنحو ثمانمـــائة فارس ، الا أن هؤلاء تقهقروا أمام القوة الفرنسية وأخلوا الطريق لها ثم زاد عددهم الى نحو ألفين نتيجة للامدادات التي وصلت اليهم ، وهاجموا مؤخرة الجيش الفرنسي ودارت معركة عنيفة بين الطرفين وكانت خسائر الاهالى كبيرة فانسحبوا وتقدم الاســطول الفرنسى الى جرجا ، حيث علم أن ما يقرب من ١٢ ألف مقاتل يرابطون فى «سمهود» فتقدم اليهم ديزيه والتقى بهم فى ٢٢ من ينـاير ، واسـتخدم وسائل الحرب الحديثة ، وقسم جيشه الى ميمنة يقودها الجنرال «فريان» وميسرة يقودها الجنرال «بليار» ووضع فرقة الفرسان فى القلب بقيادة الجنرال «دافو» وجعل المدفعية على زوايا الجيش تحميه ، وتصلى الثوار نيرانها وبهذا الترتيب ، قابل الجيش الفرنسى الثوار الذين كانوا يفوقونه عددا ، ولكن يقلون عنه مقدرة وتكتيـــكا ، ويرجع الى ذلك السبب فى انهزام الثوار فى هذه المعركة ٠

٤ ـ فى ٦ من فبراير قصد الجنرال «بليار» بقوته جزيرة « فيلة » ولما أراد ان يعبر النيل اليها على مراكب الاهالى ، رفض الاهالى تسـليم مراكبهم فعاد الى أسوان ، ثم عاود المحاولة مرة أخرى بعد بضعة أيام الا أن الاهالى وقفوا فى وجهه يمنعونه من تحقيق عزمه ، وقوبل بمقـاومة عنيفة تحدث عنها فى يومياته فقال : حمل الاهالى اسلحتهم وصـاحوا صيحات القتال ، ورأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب ويحثون التراب فى وجوهنا ، أما الرجال فأطلقوا الرصاص على رجالنـــا الذين ركبوا البحر . وكنت قد أحضرت معى مدفعا لاخضاعهم ، فدعوتهم الى الصلح والسلام فكان جوابهم انهم لايقبلون منا كلاما ، وانهم لايفرون من أمامنا كما يفر المماليك ، واستانفوا اطلاق الرصاص ، فخرج ثلاثة من رجالنا ولم يكن لدينا مراكب نصل بها الى الجزيرة وحاولنا أن نتخذ من جذوع النخل طوفا ينقل الجنود ، ولـكن المياه غمرته ، فاضطررنا الى أن نرجىء احتلال الجزيرة ، وبقيت الجنود ترابط يوم ١٩ من فبراير على شاطىء النيل تجاه الجزيرة وأطلق علينا الفلاحون الرصاص ٠

واستطاع الجنرال «بليار» بعد ذلك أن يحتل المدينة معتمدا عـلى قوة نيرانه ٠

٥ ـ وقعت المعارك بين الاهالى والفرنسيين فى الفترة ما بين ١١ من فبراير ، ٢٥ منه ، فقد اصطدم الجنرال «دافو» بجموع من الثوار فى ١١ من فبراير بالروسية (جنوب ادفو ولكن على البر الشرقى للنيل) ودامت المعركة ثلاث ساعات استخدم فيها السلاح الابيض ، واشتبك المقاتلون فيها وجها لوجه وخسر الفرنسيون خسارة جسيمة ، وبلغ عدد قتلاهم ٣٧ من بينهم أحد الضباط ويدعى «فونتت» وانسحب الثوار دون خسائر تذكر ٠

أما فى قنا فقد احتلها الجنرال «فريان» ومعه قوة بقيادة «كونرو»

وقام الثوار بمهاجمتها وخرج الضابط كونرو وكذلك الضابط «دروزن» واستطاع الجنرال «فريان» أن يمنع الثوار من استئناف هجومهم المسلح ، فرابطوا فى قرية أبو مناع حيث دارت معركة أخرى تغلبت فيها المدفعية كما حاول الثوار مهاجمة الفرنسيين فى اسنا فى ٢٥ من فبراير وبعد معركة دامت ساعة استتب الامر للفرنسيين .

٦ ـ عندما تحرك الجنرال «ديزيبه» من «قوص» سبقه اسطوله الذى كان يسير ببطء فى النيل ليلحق بالجيش فى أسيوط وبعدت المسافة بين الجيش البرى والأسطول وانتهز الاهالى الوطنيون هذه الفرصة وقرروا مهاجمة الاسطول الذى كان عدده اثنتى عشرة سفينة حربية تحمل ذخائر الجيش ومئونته وكانت تتولى قيادة هذه السفن السفينة الحربية «ايتاليا» وهى سفينة كبيرة يقودها القومندان «موراندى» .

وفى ٣ من مارس ١٧٩٩ وعلى مقربة من قرية «بارو» جنوبى قنا هاجم الاهالى السفن وأطلقوا عليها الرصاص ، فأجابتهم باطلاق مدافعها عليهم واستطاع الاهالى ، بعد أن ألقوا بأنفسهم فى المياه وسبحوا فى النيل أن يهاجموها ، وأن يستولوا عليها وأن يفرغوا شحنتها على شاطىء النيل ، ثم امتطوها وقصدوا بها الى السفينة الحربية «ايتاليا» ففكر قائد السفينة فى الانسحاب بها حينما وجد أن جنوده قد أثخنتهم الجراح ، وان جموعا أخرى من الاهالى قد تحفزت على الجانب الآخر للنيل للهجوم عليه وتدخل عامل الطبيعة فعاكست الريح السفينة فجنحت وأسرع اليها الاهالى وصعدوا على ظهرها ولكن «موراندى» برغم ما أحاط به من الخطر أبى الاستسلام ، ولجأ الى خديعة مرة اذ أشعل النيران فى مستودع البارود وألقى بنفسه ورجاله فى النيل . وانفجر مستودع البارود ونسفت السفينة ، فقتل عدد كبير من الاهالى ، واندفع الاهالى الى اليم يقاتلون الفرنسيين وتمكنوا من قتلهم جميعا بما فى ذلك « موراندى » .

وكانت كارثة السفن الفرنسية فى «بارو» أكبر خسارة منى بها الجيش الفرنسى حتى أن نابليون حزن حزنا شديدا واعتبر فقد السفينة «ايتاليا» بداية لأفول نجم فرنسا ، حتى أنه قال لمن حوله : ان فرنسا قد فقدت «ايتاليا» ، ان شعورى لايكذبنى ، وكان يقصد البلاد الايطالية لتشابه الأسماء .

٧ ـ فى ٨ من مارس ١٧٩٩ التقى « بليار » بثلاثة آلاف من الاهالى الثوار فى سهل « قفط » ودارت بينهم معركة حامية الوطيس ورأى الثوار أن ينسحبوا الى «أبنود» ليواصلوا منها معركتهم ضد الفرنسيين ، وهناك أقاموا التحصينات ونصبوا المدافع الفرنسية التى غنموها من موقعة بارو النيلية ، وعندما اقتربت قوات الجنرال «بليار» فتحت المدفعية نيرانها عليها ، وأحس الفرنسيون بالخطر ، ووجدوا أن مصدر الخطورة هو مجموعة المدافع الموجودة مع الثوار ، فوجه بليار كل همه الى الاستيلاء عليها ، وتمكن من ذلك ، ثم اشتد القتال بين الفريقين وتحصن الاهالى فى منازل القرية ودارت معركة هى أشبه بحرب الشوارع والبيوت ، ولم

يستطع الفرنسيون أن يحرزوا نصرا فما كان من بليار الا أن لجأ الى الطريقة الفرنسية المعهودة فأصدر أوامره باشعال النار فى القرية ، وعندما تحولت البلدة الى الخرائب تجمع الثوار فى قصر حصين وفى مسجد يجاوره وأخذوا يناوشون عدوهم ويطلقون عليه الرصاص ، وتكبد الفرنسيون خسائر فادحة ، ونصبوا المدافع ، بحيث تشرف على القصر وأشعلوا النار فى المسجد ، وأخذوا يقصفون القصر بالمدافع وبذلت محاولة لفك الحصار عن القصر ، الا أنها باءت بالفشل وشدد الفرنسيون الحصار والضرب ، وأشعلوا النار فى القصر ، وكاد المحاصرون يختنقون لانتشار الدخان فى أرجاء القصر فنزلوا الى ساحته واستبسلوا فى القتال ٠

وفى اليوم الثالث للمعركة اقتحم الفرنسيون القصر فوجدوا به ثلاثين من الوطنيين قد أقعدهم الاعياء ونالتهم الجراح ومع هذا ظلوا فى مقاتلتهم حتى تغلب عليهم الفرنسيون وقتلوهم وكانت هذه المعركة من أشد معارك الحملة الفرنسية هولا وأطولها زمنا لانها دامت ثلاثة أيام لم ينقطع خلالها القتال وكان حريق القرية وما أصابها من الدمار أفظع مأساة وقعت فى معارك الحملة الفرنسية ٠

٨ ـ التقى فى بئر عنبر ١٥٠٠ من الثوار بالجيش الفرنسى بقيادة الجنرال « ديزييه » وكانت الفرسان تتقدم المشاة واستطاع الاهالى أن يخوضوا غمار معركة ضد الفرسان وقتلوا فيها عددا من الضباط الفرنسيين منهم «دوبليس» ، «وبوفاتيه» وتعرض الجنرال «ديزييه» للخطر وكاد يقتل فى المعركة وانسحب الثوار من ميدان المعركة بعد أن أوقعوا بالفرنسيين خسائر فادحه وأفقدوهم اثنين من خيرة الضباط ٠

٩ ـ وصلت الى الجنرال «ديزييه» معلومات تفيد بأن الاهالى فى مديرية جرجا قد احتشدوا بالبر الشرقى لقطع مواصلات الجيش الفرنسى. وأن الثورة على وشك أن تندلع فى هذه المنطقة ، فبعث الجنرال « دافو » على رأس قوة من الفرسان لاخضاع الاهالى فيما بين قنا وجرجا ، وأمر الكولونيل «موراند» باحتلال المرتفعات المشرفة على النيل ليمنع الثوار من عبوره ٠

وفى «برديس» (٦ من ابريل ١٧٩٩) التقى «موراند» بالثوار من الاهالى وواجه هجوما عاما على جنوده فشل فى أول الامر ثم نجح بعد ذلك ، وعجز موراند عن ايقاف الهجوم فتقهقر الى جرجا ، وأثار تقهقره حماسة الاهالى وشجاعتهم فطاردوه وتعقبوا فلوله ٠ وتجهوا الى جرجا لاحتلالها ، وكانوا خلال تقدمهم يتلقون العون من سكان البلاد التى يمرون بها وقدر الجنرال «دافو» عددهم بثلاثة آلاف من الفلاحين وبدءوا هجومهم على جرجا فى ٧ من ابريل واستطاعوا دخولها الا أن الفرنسيين بعد قتال عنيف صدوهم عنها ، وكانت الثورة قد امتدت الى طهطا واستولى عليها الثوار ٠

وسرت الثورة الى القرى المجاورة فتحركت اليهم قوة بقيادة لاسال والتقت بالثوار فى جهينة ، وهى قرية جنوبى طهطا وحاصر الفرنسيون

البلدة وضربوها بالمدافع ، ودار قتال شديد في داخلها ، وحوصر الاهالى بها ، وقاوموا عدة ساعات واستطاع الفرنسيون فى نهاية الامر احتلالها.

وفي هذه الاثناء وصل الجنرال دافو الى جرجا وطهطا ثم تركهما الى أسيوط حيث كانت لثورة قدامتدت اليها واتخذ الثوار « بنى عدى » معسكرا لهم ، وهى تقع على طرف الصحراء غربى منفلوط ، ويقول عنها «دافو» انها من أكبر بلاد الوجه القبلى سكانا ، وأغناها وأعظمها مكانة وان الثورة عمت فيها من أقصاها الى اقصاها ، وان أهلها كانوا يرسلون جماعات الى شاطىء النيل لمهاجمة السفن الفرنسية واشتهر أهل هذه البلدة بالقوة وشدة البأس واجتمع بها مايقرب من ثلاثة آلاف من المسلمين وانضم اليهم ثلثمائة من المماليك ، وعندما وصل «دافو» الى موقع الثوار أطلق الاهالى الرصاص على الجنود وأصابوا الكولونيل « بينون » ، وتولى القيادة بعده «راباس» ودارت معركة حامية الوطيس فيالطرقات والبيوت التى انهال منها الرصاص على الفرنسيين ، ولجأ الفرنسيون الى وسيلة الحرق فأشعلوا النار فى البلدة التى غدت كأتون من نار ، وبهذه الوسيلة وحدها استطاع الفرنسيون القضاء على مقاومة « بنى عدى » التى اعترفوا بأنهم لم يقابلوا بمقاومة مثلها.

١٠ ــ علمت القيادة الفرنسية أن الثورة امتدت الى مديرية المنيا وبنى سويف ، وكان الجنرال «ديتريس» قائدا للحملة الفرنسية فيالمنيا فصدرت الأوامر للجنرال «دافو» بالتحرك الى المنيا لاخماد الثورة ، وحدثت مصادمات كثيرة على طول الطريق كان أهمها ماحدث فى « أبو جرج » فقد امتنع أهلها عن تقديم المئونة للجند ، وأقبل الاهالى من جميع النواحى يحملون السلاح لمعاونة أهل «أبو جرج» وامتلأت بهم المزارع وتبودل اطلاق النيران ، فأمر «دافو» بحرق القرية .

وتقدم بعد ذلك الى المنيا ولكن الثورة كانت قد امتدت قبل وصوله فواجهها «ديتريس» وحده ، ونشبت معركة حامية الوطيس استمرت ثلاثة أيام فى المنيا ، اذ تجمع الاهالى وأعدوا أنفسهم للهجوم على الحامية الفرنسية ، فأخذهم « ديتريس » على غرة ، والتقى بهم فى « تله » ودارت معركة بين الفريقين وخاضها «ديتريس» بتشكيل جديد للحرب اذ جعل قوته مربعة وسلط مدافعه على الثوار ، واستمر القتال أربع ساعات استطاع بعدها الثوار أن يتغلبوا على القوة الفرنسية فانسحبت الى المنيا وتحصنت بها ، وتبعتهم قوات الثوار فوصلوها ليلا وعادوا الى تله ، وفى اليوم الثانى استعد الجنرال ديتريس لمقاومة الاهالى وصد هجومهم المنتظر ، فوضع الرماة خلف الهضاب العالية ، وقدم الثوار وهاجموا الفرنسيين وهم يصيحون صيحات القتال ، ودارت المعركة ، والفرنسيون فى وضع الدفاع ، ونجح الاهالى فى الضغط على القوة الفرنسية التى تدافع عن الباب الشمالى للمدينة فانسحبت الى الداخل ، ولحق بهم الجنرال «ديتريس» واقتحم الاهالى أبواب المدينة الاخرى ودخلوا المدينة ، وبدأت المدفعية تصد جموع الثوار ، واستطاع الفرنسيون أن يسيطروا على المدينة وانسحب منها المهاجمون ، ثم عاد الثوار فى اليوم الثالث الى المدينة وهاجموا الفرنسيين ، وفشل هجومهم وانتهت المعركة .

واخيرا ...

ننتهي من هذا السرد المتعدد الجوانب للنضال الشعبى فى الوجه القبلى الى أن الفرنسيين لم يستطيعوا اخضاع الوجه القبلى اخضاعا تاما لهم واقرار السلطة الفرنسيه فيه لان قوات الجنرال «ديزييه»ظلت تطارد قوات شتى لاعداد لها ، ولا يكاد يتغلب عليها حتي تتجمع من جـــديد وتعود ثانية للنضال ، ومعنى هذا انه صار يحارب حربا لانهاية لهـــا فى ميدان واسع مترامى الأطراف يمتد من الجيزة الى أسوان ومن القصير الى واحات الصحراء الكبرى .

ويتضح لنا من هذا العرض أن الفرنسيين قاوموا ثورة الاهـــالى وكافحوها بالقوة المســلحة وبالنيران وبالارهاب وبالقســوة وبالفظــائع الرهيبة التى امتلأ بها تاريخ حروبهم فى الوجه القبلى ، ولا شك فى أن هذه العوامل برغم عنفها أدت دورها فى خضوع قطاعات كثيرة من بلاد الوجه القبلى ، ومع هذا فانها لم تخضع مشاعر الاهالى أو عواطفهم التى ظلت متأججة تحت دافع وطنيتهم ورغبتهم فى تخليص البلاد من الفرنسيين وهذه المشاعر التى تملكت الاهالى فى الوجه القبلى بالاضافة الى مشاعر اخوانهم فى الوجه البحرى جعلت الأمور فى البلاد غير مستقرة بالنسبة للفرنسيين حتى انهم أحسوا أن مشروعاتهم الكثيرة التى جاءوا من أجلها قد بدأت تميل الى المغيب والأفول .

الباب الخامس

ثورة القاهرة الأولى

أسباب الثورة

أول الثورة ... مظاهرة

أحداث الثورة

ماذا بعد الثورة

أعلن المصريون غضبتهم الكبرى على فرنسا والفرنسيين منذ وطئت أقدام الحملة الفرنسيه أرض مصر ، وفي الوقت الذى ثار فيه الشعب المصرى في الوجه البحرى ، ثار المصريون فى الوجه القبلى ، كما ثار المصريون من أهالى القاهرة ثورتهم الكبرى فى أكتوبر ١٧٩٨ ، وأن قيام ثورات فى جميع أنحاء القطر المصرى شماليه وجنوبيه ، يعنى معنى ساميا ويبرز مشاعر المصريين لوطنهم وعواطفهم نحو بلادهم ، وتمسكهم بحريتهم وسيادتهم واستقلالهم ، لقد هب المصريون جميعا فى جميع أرجاء الديار المصرية ثائرين مناضلين ، مكافحين ، باذلين من ذات أنفسهم غاية ما يستطيعون لطرد المحتل ، ولتطهير البلاد من دنسهم واستعبادهم وكانت ثورة القاهرة أعنف هذه الثورات ، فقد اتخذت شكلا جديدا فى المقاومة ، وصورة تبدو فيها وطنية المصريين واضحة المعالم ·

قلنا ان نابليون حين استقر به الامر فى القاهرة بعد انتصاره فى معركة الاهرام ، بذل جهودا كبيرة للتقرب الى الاهالى ، وكان يسعى سعيا حثيثا متواصلا الى اجتذاب القلوب اليه ، والى تهدئة النفوس ، وايجاد نوع من الثقة بين المصريين ، وبين أفراد الحملة الا أن المصريين وهم يلمسون محاولات نابليون فى التقرب اليهم لم يغب عن بالهم أن نابليون وجنده محتلون ، يستهدفون أول ما يستهدفون مصالحهم الخاصة ومنفعتهم الذاتية ، ومن أجل هذا كان المصريون على حذر وحرص ، وكانوا يعدون أنفسهم للحظة الخلاص ، وقد عاهدوا الله على البذل والفداء من أجل تحرير بلادهم وطرد الفرنسيين من أرضهم ·

أسباب الثورة ···

وثورة القاهرة كان لها أسباب ودوافع ، يحتل مكان الصدارة فيها الدافع الوطنى ، وكانت بجانبه دوافع أخرى لم تكن دوافع أساسية برغم أنها كانت ذات أثر كبير فى توجيه دفة المشاعر الوطنية ناحية الثورة ، والدافع الوطنى مفهوم فى معناه ، ولعل هذا الدافع كان الاداة التى استخدمها العلماء لاثارة المشاعر عند الاهلين ، فقد استطاع رجال الدين والعلماء أن يثيروا النفوس وأن يمهدوا للثورة ، وأن يجمعوا الصفوف وأن ينظموها ، وأن ينشروا الدعوة للثورة ، وكونوا لجنة سميت « لجنة الثورة » كان مقرها الجامع الازهر ، وكانت مهمتها اثارة الكراهية فى نفوس الناقمين ·

١ ــ بجانب العامل الوطنى ، يقفز عامل آخر ليأخذ مكانه فى اثارة النفوس ضد الفرنسيين ، ونعنى به عامل فرض الضرائب ، فنحن نعرف أن المصريين كانوا يشتكون مر الشكوى من فداحة الضرائب التى فرضها المماليك فى فترة ما قبل الحملة الفرنسية ، وكانت الضرائب تثقل كاهلهم

وتزيد أعباءهم حتى أن حياتهم الاجتماعية كانت مثقلة بما جعل النـــاس يعيشون فى كرب وهم ، فلما جاء نابليون توقع الناس أن يخف الحمل ، وان يزول الظلم الضرائبى ، وان يتنفس الناس الصعداء ، فيعيشوا حياتهم رتيبة هادئة ، فيها أمان على لقمة العيش ، وفيها أمان على مكاسب الفرد ، الا أن نابليون سار على نهج المماليك ، وخاصة حين دمر أسطوله فى ابى قير ، وأصبح اعتماده يقوم أساسا على ما تمده به البلاد ، فما ان دخل القاهرة حتى فرض على سكانها ضريبة فادحة فى شكل سلفة اجبـــارية قدرت بخمسمائة ألف ريال (أى مائة ألف جنيه) ، أى أن نابليون بدأ عمله فى القاهرة بارهاق الاهالى بالضرائب ، وفى هذا قال الجبرتى « انه فى يوم السبت ٢٨ من يوليو ١٧٩٨ (يلاحظ ان معركة الاهرام انتهت فى ٢٢ من يوليو) اجتمع الديوان وطلب منه نابليون سلفة خمسمائة ألف ريال من التجار المسلمين والنصارى والقبط والشوام ، وتجار الافرنج فسأل أعضاء الديوان التخفيف ، فلم يجابوا ، وذكر « ديلاجونكيير » أن نابليون فرض قروضا اجبارية فى الايام الاولى للحملة على مختلف الطبقات ، ففرض مثلا ٣٠٠ر٠٠٠ فرنك على تجار الاسكندرية ، ١٠٠ر٠٠٠ على تجـار رشيد ، ١٥٠ر٠٠٠ على تجار دمياط ، ٦٠ر٠٠٠ ألف ريال نقدا ، ٤٠ر٠٠٠ على تجار المنسوجات ، بالقاهرة ، ٣٠٠ر٠٠٠ ريال على تجار البن والبهـــار بالقاهرة ، ١٠٠ر٠٠٠ ريال على تجار خان الخليلى ، ١٠ر٠٠٠ ريال عـلى وكالات الصابون ، ٦ر٠٠٠ على وكالات الفاكهة ، ١٥ر٠٠٠ على الصائغين ، ١٠ر٠٠٠ على تجار السكر ، ١٥ر٠٠٠ على تجار الاقمشة الهندية ٠٠ ولاشك فى أن هذه الضرائب والقروض كانت تشكل خطرا داهما وعبئا جسيما تنوء به البلاد ، وخاصة أن البلاد كانت تعانى الكثير من الضنك والفاقة والحاجة » .

وافتن الفرنسيون فى ابتزاز الاموال ، وفى مصادرة الممتلكات وأثاروا مشاعر المصريين بما فرضوه على نساء البكوات المماليك اذ أمر نابليون بأن تصالح كل منهن عن نفسها وأتباعها بمقدار من المال ، كما سمح لهن بسكنى بيوتهن نظير مبالغ من المال ، ويقول «ريبو» ان مجموع مافرضه الفرنسيون على نساء المماليك بلغ ٦٠٠ر٠٠٠ فرنك ويبدو أن ريبو أخطأ فى التقدير ، لان نابليون كان قد أصدر فى أغسطس ١٧٩٨ أمرا بأن تدفع الســـيدة « نفيسة » زوجة مراد بك ٦٠٠ر٠٠٠ فرنك عن نفسها وعن نساء أتبـاع زوجها وقيل ان زوجة مراد بك باعت حليها وجواهرها لكى تستطيع أن تدفع حصتها فى الغرامة .

واستمر الفرنسيون يفرضون الضرائب ويجمعون الاموال ويفتنون فى استخراجها من أهل البلاد ، فابتدعوا نظام اثبات الملكية وتســـجيل السندات والعقود ، وفرضوا اتاوات ورسوما لهذه العمليات كلها .

٢ ــ ولما كان سوء الحالة المالية عند الاهالى من أسباب تذمرهم وشكواهم ، كذلك كان شأن مصادرة الاملاك ، وهدم المبـانى ، فقد أخرج الفرنسيون كثيرا من الاهالى من بيوتهم بدعوى انهم فى حاجة اليها ، كما هدموا كثيرا من المبانى والآثار والمساجد ، بدعوى رغبتهم فى تحصين القاهرة ومن

أجل ترميم القلعة هدم الفرنسيون جميع البيوت المحيطة بها ، بعد أن أمروا سكانها باخلائها ، وامتد هدمهم الى بعض المساجد القريبة مما أثار مشاعر المصريين وغضبهم على ما يرتكبه الفرنسيون فى حقهم من مظالم ·

كانت القاهرة فى عهد المماليك مجموعة من البيوت والمساجد وكانت مقسمة أقساما تكثر بها الحارات والدروب وكان لكل منها باب يغلق فى الليل بقصد بقاء كل حارة فى أمان من اعتداء اللصوص ، فلما جاء نابليون رأى أن يزيل هذه الابواب حتى لا تستخدم وقت اللزوم ضد الفرنسيين وحتى لا تقف حجر عثرة أمامهم عند فرض ارادتهم على المدينة وأصدر نابليون أوامره الى مهندسيه بهدم هذه الابواب ، فاشتد قلق الناس ، وباتوا فى خوف دائم من الفرنسيين وظنوا بهم الظنون ، فمن قائل ان الفرنسيين سيقتلون المصريين ومن قائل ان الفرنسيين أزالوا هذه الابواب ليفرضوا ارهابهم على الاهلين ، وأدى ازالة الابواب وهدمها الى تذمر الاهالى وسخطهم ، ويصور هذا التذمر وذاك السخط الجنرال « لوجيه » فى قوله « أمر القائد العام بنزع هذه الابواب وتذمر الاهالى وجعلوا يصيحون ويسخطون وأقفل التجار دكاكينهم احتجاجا على هذا العمل »

ومما يؤكد ان الاهالى قد أغضبهم اقتلاع أبواب الدروب والحوارى انهم حينما قاموا بثورتهم هاجموا بيت الجنرال « كافاريللى » وهو من أبرز قواد الجيش الفرنسى وأغزرهم علما جاء الى مصر فاقدا احدى قدميه وكان الجبرتى يطلق عليه اسم « كافرللى المسمى بأبى خشبة » ، واختاره نابليون رئيسا لفرقة المهندسين ، وكان يقطن فى الدرب الاحمر ، وكان به وقت الهجوم اثنان من مهندسى القناطر والجسور هما « تيفنو » ، و « دوفال » فقتلهما الثوار ، كما أفسدوا ما وجدوه بالبيت من آلات فلكية وهندسية ، وكان من القتلى الذين لقوا مصرعهم على أيدى الثوار المسيو « تستيفيود » وهو كبير المهندسين ، ولعل هذا الهجوم والقتل يعد انتقاما من هؤلاء الذين كانوا يشرفون على عمليات الهدم ، واقتلاع الابواب ، وتخريب البيوت والمساجد ·

٣ ـ ويقوم بجانب هذه الاسباب عامل جديد تمثل فى المظالم الكثيرة التى تعرض لها الاهالى ، وذيوع القتل والهدم والتخريب والارهاب فى جميع أنحاء البلاد ، مما أثار النفوس على الفرنسيين ، وزاد فى حنق الناس عليهم ، وأشعل الثورة فى نفوسهم ولعل أول ما أثار النفوس هو اعدام السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية ، وقد كانت له منزلة كبيرة فى نفوس أفراد الشعب ، وكانوا ينظرون اليه نظرتهم الى زعيم مجاهد وعالم دينى فاضل ؛ كما تكررت حوادث القتل فى داخل البلاد ، فكم تناول الناس بالحديث الغاضب الحانق حوادث القتل فى المديريات المختلفة ، وحوادث حفظ الرهائن واعتقالهم وحوادث الهدم التى تعددت فى أكثر من قرية ومدينة ، لقد ظن الفرنسيون أنهم بالارهاب والقتل والتخريب يستطيعون اخضاع الناس ، ولهذا صدرت الاوامر مشددة من نابليون شخصيا الى نوابه فى المديريات باستعمال منتهى القسوة من قتل وتخريب وحرق

وسلب ونهب لضمان اذعان الاهالى ، فقد كتب الى أحد قواده يقول « انى هنا أقتل كل يوم ثلاثة وآمر بأن يطاف برءوسهم فى شوارع القاهرة وهذه هى الطريقة الوحيدة لاخضاع الناس » .

أول الثورة ... مظاهرة

كل هذه الاسباب مجتمعة جعلت فكرة الثـــورة تختمر فى الاذهان وبدأت النفوس تستعد لها ، وفى ليلة ٢١ من أكتوبر عقد اجتماع حضره ثلاثون من زعماء البلاد ، واستقر الرأى على اغلاق الحوانيت والسـير فى مظاهرة كبيرة الى القيادة الفرنسية لابلاغها رغبات الشعب وعرض وجهات النظر فيما يتعلق بالضرائب وبأعمال الهدم التى تقوم بها القوات الفرنسية

وفى صباح ٢١ من أكتوبر خرج الناس من بيوتهم يتحدثون فى أمر الثورة ويخطبون مشعلين بخطبهم نيران الحماسة فى النفوس ، ويؤيدون فكرة الانقضاض على الفرنسيين ، ويتعاهدون على أن يكونوا جميعــا يدا واحدة وقلبا واحدا يسعى الى هدف واحد ، وظهرت الاســلحة فى أيدى الاهالى ، وجاء الفلاحون من الضواحى والبلاد القريبة ، ويصف « ريبو » الحالة فيقول « سادت الجلبة ، واختلطت الاصوات ، وعلت الصيحات ، فكان هذا المنظر يبعث الرهبة فى نفوس أشجع الناس ، ولم يعد هنــاك شك فى أن الثورة قد بدأت » .

أحداث الثورة ...

١ ـ تجمع الناس عند بيت القاضى التركى ابراهيم أدهم وقابله وفد من الناس ، وطلبوا منه أن يذهب معهم الى بونابرت ليعيد النظر فى فرض الضرائب ، فاستجاب لهم ، ولكنه فوجىء بالجموع الزاحفة التى لا يمكن حصرها فأبى أن يخرج على رأس هذه الجموع وخاف نتيجة هذا التجمع الكبير ، فلم يبال به الاهالى ، وتعدوا عليه بالضرب ، وسارت الجموع الى الازهر وامتلأت الطرق والشوارع بالناس ، وابتدأت الحشود تتجه الى حيث يعيش الفرنسيون ، وبدأت عمليات الهجوم على مواقع الفرنسيين ، ولم يكن نابليون موجودا بالقاهرة فى هذا اليوم ، وكانت مقاليــد الامن ملقاة الى الجنرال « ديبوى » الذى لم يقدر الموقف تقديرا صائبـــا ، ولم يحسب له حسابا ، فأوفد بعض الدوريات القليلة العدد لاستطلاع الامر ، ووصلت اليه أنباء الثورة المسلحة ، والحشود الغفيرة ، فاصطحب ياوره « مورى » وترجمانه التاجر الفرنسى « بودوف » ، واتجه الى بيت القاضى ليلتقى بالاهالى ويقف على أسباب الثورة وأصدر أوامره فى ذات الوقت الى القوات المرابطة فى بركة الفيل بأن تكون على أهبة الاستعداد للتدخل والتصرف الحازم .

اتجه « ديبوى » من بركة الفيل حيث منزله (كان يسكن بيت ابراهيم بك) الى الموسكى ، ومنه الى شارع الغورية وأراد أن يذهب الى بيت القاضى فى « بين القصرين » ، ولكنه فوجىء بالجموع تسد عليه الطريق ، فأخــذ يشق لنفسه طريقا بينها ، ولم يتمالك الناس نفوسهم فبدءوا يلقون عليه

الاحجار ، وعندما غادر « بين القصرين » ، وباب الزهومة أغلق عليه الثوار الطريق ، وحاول « تودوف » أن يتفاهم مع الناس فلم يستطع لشـــدة ثورتهم ، وأراد « ديبوى » أن يستخدم العنف ولكن الاهالي كانوا في ذلك الوقت في شارع ضيق لم يسمح لفرسان ديبوى بالحركة ، وأطبق الناس على الجنرال من كل جانب فى الوقت الذى وصل فيه « برتملى » الرومى ، وهو رجل من الروم كان مشهورا بالقسوةوكان صاحب حانوت فيالموسكي يبيع فيه القوارير وعهد اليه الفرنسيون بوكالة محافظة القاهرة ، وكان الناس يكرهونه لشدته وقسوته ، وفظائعه وشروره ، فأطلق « برتلمى » الرصاص على الاهالى فأثار الرصاص غضبهم ، وبدءوا هجوما عنيفا على الفرنسيين ، وانهالوا عليهم ضربا بالعصى وقذفا بالاحجار ، واستخدموا السـيوف والرماح والسـهام ، وأصيب ديبوى فى ثديه الايسر اذ أصيب بطعنة رمح وتفجر الدم منه ، ونقل الى دار الجنرال « جونو » بالازبكيـة حيث الدكتور « لارى » لاسعافه ولكنه مات متأثرا بجراحه ٠

وكان مقتل « ديبوى » نقطة تحول فى أحداث الثورة فما أن علم به الثوار حتى ازدادوا حماسة ، وانحازت الجموع الهادئة الى الثوار ، وزاد العدد وتضاعف واشتدت حمية القتال ، واستولى الثـوار على المواقع المحيطة بالقاهرة ، كباب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب زويله، وأقاموا المتاريس فى الشوارع ، ونصبوا أسـلحتهم من ورائها ؛ وجاءت جموع كثيرة من القرى تنضم الى الثوار ، وأصبحت المدينة تموج كالبحر الخضم ٠

وأحس نابليون بخطورة الموقف فأعلن التعبئة ، وجاء بنفسـه الى القاهرة ليواجه الموقف فى الوقت الذى اجتمع بالجامع الازهر ٠٠٠ر١٥من الثوار ، وقد وصف الكولونيل « ديتروا » ، ما شاهده فىيوم الثورة فقال « ٢١ من اكتوبر ١٧٩٨ والساعة السادسة صباحا احتشدت الجموع فى عدة أحياء من القاهرة وعلت أصوات السخط والاستياء ، وأخذ الناقمون يعددون أسباب سخطهم ، وصاح المؤذنون على مآذنهم ينـادون نداءات مثيرة للخواطر ، وأسرعالناس المسلحون بالبنادقوالعصى يقصدونالاجتماع فى صعيد واحد ، ثم أقفلت الدكاكين ، وفى نحو الساعة الثامنة صباحا ، علم الجنود الفرنسيون بهذا الشر ، فتأهبوا للقتال ، وكان القائد العام ، مطمئنا لموقفه فركب جواده ، وصحب من القواد كافاريللى ، ودومارتان ، وكنت معهم ، وذهبنا نتفقد استحكامات مصر القديمة ، وجزيرة الروضة، وفى نحو الساعة العاشرة جاءه الخبر أن القتال قد بدأ فى المدينة وان أناسا قتلوا من الفريقين ، وأن الجنرال « ديبوى » قومندان القاهرة ضمن القتلى صرعه الثائرون برمية سهم نفذت الى ثديه وكان فى كتيبة من الفرسان، ذهب القتل بكثير منهم ٠٠٠ »

وأوضح « ديتروا » فى يومياته مواقع كل من الفريقين ، فقـد جاء فى هذه اليوميات « كان الفرنسيون يحتلون المواقع الآتية ٠٠٠ القلعة حيث كانت لنا مدفعية قوية ، وميدان بركة الفيل حيث كان يعسكرمعظم الجنود ، ثم ميدان الازبكية مقر القيادة العامة ، وكان يحميه ١٥ مدفعا ،

وقد أمكننا بعد جهد وصعوبة ، أن نمد الاتصال بين هذه المواقع المختلفة ... أما المعسكر العام للثائرين فكان الجامع الكبير المسمى بالازهر ، ذلك المسجد الجميل الذى طارت شهرته فى أنحاء البلاد ، وقد أقام الثائرون المتاريس على منافذ الشوارع المفضية اليه ، فأصبح من المستحيل أن تقتحمه المدفعية أو الجنود المشاة » .

٢ ـ أصدر نابليون أمرا الى الجنرال « دومارتان » قائد المدفعية بأن يضع مدافعه فوق المقطم على أن يختار هذه المواقع فى شرق القلعة حتى تتعاون مع المدافع المنصوبة فوق القلعة فى ضرب الثائرين المتجمعين فى الجامع الازهر ، ثم أصدر أوامره الى الجنرال « جونو » بأن يتولى قيادة القوات الفرنسية المعسكرة فى منطقة الازبكية ، وأن يقيم دوريات من الجنود تقوم بمراقبة المناطق المجاورة لها وأن يعد دوريات مسلحة تقوم بعملية الكشف فى مناطق القاهرة المختلفه ، وأن يضع مدافعه على منافذ الشوارع الهامه التى قد يستخدمها الثوار فى تقدمهم .

وأمر نابليون أيضا بتعيين الجنرال « بون » قومندانا للقاهرة خلفا للجنرال « ديبوى » وكلفه اتخاذ اللازم لاعادة النظام فى المدينة ، ثم كلف الجنرال « لان » قائد معسكر مصر القديمة احتلال المرتفعات القائمة فى خارج المدينة على أن يرتب شئونه الادارية من المؤن لمدة يومين ، وأخيرا بعث الى بون يقول « المظنون أن غدا كاليوم ، ولا سبيل غدا الى تثبيت الجموع المسلحة التى تتدفق من هذا المعسكر الثورى لذلك أرى أن تقرروا اتخاذ وسائل الشدة والصرامة » .

ووجه نابليون بعضا من الجنرالات مثل الجنرال « فو » ، والجنرال «الكسندر دوماس» الى الضواحى لمحاولة منع أهلها من الانضمام الى الثوار والانحياز الى الثورة ، وقد نجحت القوات الفرنسية فى صد جموع كثيرة، وحالت بينها وبين العاصمة .

هذه هى الترتيبات التى اتخذها نابليون فى مساء اليوم الاول ليستعد لمواجهة الثورة فى يومها الاول ، وانقضى الليل فى هدوء والجانبان مستعدان للغد ، الفرنسيون ينصبون مدافعهم ، وينفذون أوامر نابليون ويصدون الاهالى القادمين من الضواحى ، ويمنعونهم من دخول المدينة ويحولون بينهم وبين الانضمام الى الثوار ، وبذلك يكون نابليون قد نجح فى عزل الثورة وحصرها، وفى تحديد الثوار ليكونوا أهل القاهرة وحدهم، ولو أن عددا من أهالى الضواحى نجح برغم هذه الاجراءات فى التسلل والوصول الى داخل القاهرة لان أبواب المدينة كانت ما زالت فى أيدى المصريين فكانوا يفتحونها ويدخلون الى المدينة من يشاءون ، والثوار سار بعضهم فى الليل الى القرى المجاورة يدعون الناس للانضمام للثورة ، وأهالى المناطق القريبة والضواحى يتوافدون على المدينة وينضمون الى الثوار .

ثم بدأ يوم ٢٢ من أكتوبر والجماهير تملأ الشوارع وصيحاتهم تشق الفضاء الى السماء وبدأ الاصطدام ... فوجه نابليون قوات كافية

الى كل جماعة من الثوار للتغلب عليهم ، وخرجت جموع من الثوار تقدر ما بين ٧٠٠٠ ـ ٨٠٠٠ من باب الفتوح متجهة الى المرتفعات التى نصبت فوقها المدافع بقصد احتلالها والاستيلاء على المدافع ، فصدتهم القوات الفرنسية ، وفرقت شملهم ، وهاجم بعض الثوار كتيبة الفرسان التى كانت تحتل مدخل الحارة الموصلة الى ميدان الازبكية ، وتسلقوا المنازل والاسطح واحتلوا مسجدا يشرف على موقع الكتيبة واطلقوا النيران عليها، وأوقعوا بها خسائر فادحة ، مما دفع الفرنسيين الى مهاجمة المسجد فحطموا أبوابه ، وقتلوا معظم الثوار فى داخله ٠

٣ ـ كان الجنرال « سلكوسكى » ياور نابليون قد كلف ومعه كتيبة من حرس القائد العام بالتقدم الى طريق بلبيس لمنع الاهالى من دخول القاهرة والانضمام الى الثوار ، وبعد أن أتم مهمته عاد الى القاهرة ، وعند باب النصر تلقاه الثوار وحالوا بينه وبين دخول المدينة ، فأراد أن يشق لنفسه طريقا وسطهم فوقع بينه وبينهم صدام مسلح سقط فى أثنائه من فوق جواده ، وهجم عليه الثوار وقتلوه مما أحزن نابليون فقد كان هذا الضابط مقربا الى قلبه وعلى جانب من الحلم والذكاء والمقدرة ٠

٤ ـ تجمع الثوار فى اليوم الثانى فى الازهر ٠٠٠ وكان أعضاء الديوان قد لجئوا الى نابليون يلتمسون منه أن يكف عن ضرب المدينة بالقنابل فطلب منهم أن يتصلوا بالثوار لالقاء السلاح وبالاخلاد الى السكينة وأمهلهم فترة تكفى لهذا الاتصال ، وكلف الجنرال « دومارتان » قائد المدفعية أن يوقف الضرب لحين صدور أوامر أخرى ، فاتجه أعضاء الديوان الى الازهر ، وأخذوا ينصحون الثوار بالكف عن القتال ، فلم يأبهوا لهم ، ولم يستمعوا لقولهم ، بل لقد أبى عليهم الثوار دخول الازهر ، مما جعلهم يفشلون فيما قدموا من أجله ، وكان الثوار يتوقعون ألا يفكر نابليون فى مهاجمته أو ضربه بالنسبة لما يعرفه عن مكانته الدينية فى نفوس المسلمين جميعا ، الا أن الجنرال « بون » بعث اليه يقول : « آن الدوريات أنبأتنى بتجمعات كثيرة فى حى الازهر ومن الواجب التذرع بالشدة لتفريق الجموع المسلحة التى تحتشد بهذا الحى ، وانى منتظر لاوامركم ، ومن رأيى أن نميل بقواتنا على هذا المسجد ، ومن الصواب أن نزحف عليه من كل الجهات التى تفضى اليه » ٠٠٠ وبعد ظهر اليوم الثانى تلقى بون أوامر القائد العام : « عليكم أن تهاجموا لفوركم معسكر الثائرين ، وأن تضربوا الازهر بالمدافع ، ولتكن المدافع فى أصلح موقع ليكون الضرب أشد أثرا ، بلغوا الجنرال « دومارتان » أن يفعل مثل ذلك ، وأن يستولى على مدخل الازهر والمنازل الموصلة اليه ، وعليكم أن تقتحموه بجنودكم تحت حماية المدافع ، والقائد العام يأمر بأن تقتلوا كل من تلقون فى الشوارع المسلحة، وعليكم أن تقتلوا الاهالى ، وأن كل المنازل التى تلقى منها الحجارة تحرق حالا بالنار ، ويغض عن المنازل الاخرى ، وعليكم أن تقتلوا كل من فى المسجد ، وأن تضعوا فيه حرسا من الجنود الاقوياء » ٠

وبينما الثائرون مجتمعون فى الازهر يعدون أنفسهم للقاء المنتظر سقطت من المقطم أول قنبلة وجهتها مدافعهم فانفجرت داخل المسجد ،

وكانت نذيرا بخطة عنيفة يلجأ اليها الفرنسيون ، وذكر ريبو أن اطلاق القنابل بدأ فى الرابعة تماما وانهالت على الازهر وفى المناطق المحيطة به كالغورية والفحامين ، وكانت أصوات القنابل مثيرة للنفوس ألقت الرعب فيها وانزعج الثوار وتولاهم الخوف ، فهذه هى المرة الاولى التى يواجهون بقذائف متواصلة ذات دوى هائل وأثر فظيع ، وفوجىء الاهالى فى ذات الوقت بكتائب الجنود تحتل الشوارع الموصلة الى الازهر حتى أصبحت الثورة والثوار محصورين بين نارين ، نار الجنود من حولهم ونار المدافع من فوقهم ، ووصف ريبو الآثار الناتجة عن ضرب الازهر فقال : « أوشك الجامع الازهر أن يتداعى من شدة الضرب ، فيدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه ، وأصبح الحى المجاور للازهر صورة من الخراب والتدمير ، فلم يكن يرى فيه الا بيوت مدمرة ودور محترقة ، ومات تحت الانقاض آلاف من السكان الآمنين ، وكان يسمع لهم أنين مزعج وصيحات مرعبة »

ووصف الجبرتى ضرب الازهر بالمدافع فقال : « تتابع الرمى من القلعة حتى تزعزعت الاركان ، وهدم مرورها حيطان الدور ، وسقطت فى بعض القصور ، ونزلت فى البيوت والوكالات وأصمت الآذان بصوتها الهائل » .

وعندما استمر الضرب طويلا متواصلا أحس الثوار أن الفرنسيين يفوقونهم فى قوة النيران ، وأن لديهم من المدافع ما يكفى لهدم المدينة ، وانزال الخسائر بها ، فوقع الاختلال فى صفوفهم ، وطالبوا بالتفاوض مع الفرنسيين فمنحوهم فرصة للهدنة ، واتفق بعد المفاوضة على القاء السلاح وتسليمه ورفع المتاريس ، وفتح الطريق للفرنسيين الى الجامع الازهر .

وهكذا تغلبت قوة الحديد والنار على شعب أعزل ينقصه السلاح ، وما أن استسلم الشعب ومال الى الهدوء حتى بدأت القوات الفرنسية تمارس نوعا من الانتقام العنيف واستهدف سكان القاهرة لموجة من الارهاب والقتل والتعذيب ، ونزلت بهم النوازل بخطوبها وأهوالها ، حتى أن ديتروا قدر فى يومياته عدد القتلى من الاهالى بما يتردد بين ٧٠٠ــ٨٠٠ فى حين أحصاهم نابليون فى تقرير له الى حكومة الادارة ، بما يتردد بين ٢٠٠٠ ــ ٢٥٠٠ ، وقدر الجنرال « بليار » القتلى بـ ٤٠٠٠ قتيل .

ماذا بعد الثورة ...

وبعد أن استسلم الثوار حدثت بعض الحوادث الهامة التى يجب أن نشير اليها بعد أن انتهينا من حديث الثورة لان هذه الحوادث كانت ذات أثر هام فى حالة البلاد فى هذه الآونة ...

١ ــ يتضح لكل مطلع على حوادث الثورة الشعبية ضد الفرنسيين فى أكتوبر ١٧٩٨ أن الفرنسيين استخدموا كل وسائل القسوة والارهاب والعنف حتى يقضوا على الثورة فكتلوا مدافعهم وقواتهم ، واستخدموها استخداما وحشيا ضد شعب مسالم أعزل كانت غلطته من وجهة نظرهم أنه قام ليدافع عن نفسه وعن حريته وسيادته ، فلما انتهت الثورة لم يحسب الفرنسيون حسابا للقلوب المجروحة، ولم يحاولوا اجتذابها اليهم

كما أن الشعب لم ينس ماإتخذه الفرنسيون صده من وسائل التعذيب والارهاب ، ولهذا كانت الثورة المصريه فى القاهرة من أهم الدوافع والأسباب التى باعدت بين الفرنسيين والمصريين ، وكان هذا البعد معولا تهدمت به كل آمال نابليون فى مصر .

ولقد أدى الى زيادة الجفاء بين أهل البلاد والفرنسيين ما ارتكبه هؤلاء بعد تسليم المدينة وعودة الهدوء والسكينة اليها من ضروب التنكيل والانتقام ، فقد انتهكوا حرمة الأزهر كما روى الجبرتى ، وهم راكبون الخيل ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا فى الأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين ، والمكتبة ، ونهبوا ماوجدوه من المتاع ، والأوانى والقصاع ، والودائع المخبأة بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف ، على الارض وطرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وكسروا أوانيه ، وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه ، ومن ثيابه أخرجوه ، وقد وصف الشيخ عبد الله الشرقاوى فى كتابه تحفة الناظرين ماحدث فى الأزهر : ان الفرنسيين قتلوا من علماء مصر ثلاثة عشر عالما ودخلوا بخيولهم الجامع الازهر ، ومكثوا فيه يوما وبعض الليلة التالية ، وقتلوا فيه بعض العلماء ، ونهبوا أموالا كثيرة ، وسبب وجودها فيه أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لايدخله ، فحولوا فيه أمتعة بيوتهم فنهبوها ، ونهبوا أكثر البيوت التى حول الجامع ودشتوا الكتب التى فى الخزائن يعتقدون أن بها أموالا وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتبا ومصاحف نفيسة .

٢ ـ اندفع الجنود الفرنسيون فى الاحياء المجاورة للازهر وأخذوا ينهبون بيوتها بحجة التفتيش عن السلاح ، واستخدموا كل الفظائع ،حتى أن الناس هاجروا دورهم واختاروا السلامة والنجاة ، بينما أخذ الفرنسيون يتسكعون فى الاسواق والشوارع اذا مر بهم أحد فتشوه ، وأخذوا مامعه ، وربما قتلوه وأخذوا يقبضون على الناس بحجة أن لديهم سلاحا ، أو بحجة أنهم اشتركوا فى الثورة ، مما أوجد جوا من الفزع فى المدينة فكثرت الوشايات وراجت الدسائس ، وتعددت المظالم واستبيحت الحرمات ، وسجن الأبرياء ، وذاق الناس الأذى والهوان ألوانا وأنواعا . وقتل الكثيرون ، وفى هذا المعنى يقول الجبروتى «انتدب «برتلمى» الرومى للعسس على من حمل السلاح أو اختلس ، وبث أعوانه فى الجهات يتجسسون فى الطرقات فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم ، فيحكم فيهم بمراده ويعمل برأيه واجتهاده ، ويأخذ منهم الكثير ويركب فى موكبه ويسير ، وهم موثقون بين يديه بالحبال، ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال فيودعونهم السجونات ، ويطالبونهم بالمنهوبات ، ويقررونهم بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن آلات السلاح والحرب .. وكذلك فعل مثل مافعله اللعين الأغا (يقصد مصطفى أغا الذى عينه الفرنسيون محافظا للمدينة) وتجبر فى أفعاله وطغى ، وكثير من الناس ذبحوهم وفى بحر النيل قذفوهم ، ومات فى هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لايحصى عددها الا الله »

٣ ـ أصدر الجنرال «برتييه» رئيس أركان حرب تعليمات مشددة الى ضباطه وجنوده ، يامرهم بالقسوة والحزم ، ومن ذلك مثلا : أمر الى الجنرال «بون» بهدم الجامع الاكبر ليلا اذا أمكن ، وبرفع الحواجز والابواب التى كانت تسد الشوارع ، بهذه الآوامر جاوز الفرنسيون الغرض من اخماد الثورة الى الانتقام والارهاب ، وبلغت بهم الجرأة أن يفكروا فى هدم الجامع الأكبر الذى يعتبر منارا للاسلام والمسلمين جميعاً ، ومن الاوامر التى أصدرها الجنرال «برتييه» تعليماته الى قومندان المدينة : بقطع رءوس جميع المسجونين الذين أخذوا ومعهم اسلحة وعليكم ارسال الجثث فى هذه الليلة الى شاطىء النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة واغراقها فى النهر ٠

ولقد قام الفرنسيون باعدام كثير من الاهالى فى القلعة دونأن توجه اليهم تهمة ، ودون أن يقدموا لمحاكمة ، ومن عجب أن عمليات القتل والتعذيب لم تكن مقصورة على القاهرة وحدها وانما تعدتها الى الاقاليم كما أن الفرنسيين لم تأخذهم رحمة بالنساء فقتلوا كثيرا منهن ، ويقول المسيو (بوريين) سكرتير نابليون الخاص فى مذكراته : سيق المسجونون الى القلعة وكنت أتولى فى مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية باعدام اثنى عشر سجينا كل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع فى زكائب وتغرق فى النيل ، واستمر ذلك ليالى عدة ٠

وكتب الجنرال «برتييه» الى الجنرال «دوجا» قومندان المنصورة يقول له : لقد نكلنا بالثائرين فى مذبحة رهيبة ، فسادت السكينة وقد قتلنا منهم ألفين أو ثلاثة آلاف ٠

وكتب نابليون الى قومندان الشرقية الجنرال «رينيه» يقول له : عادت السكينة الى القاهرة وفقد الثائرون نحو ألفى قتيل ، وفى كل ليلة نقطع رءوس نحو ثلاثين من الرجال وكثير من زعماء الاهالى وأظن أن هذا سيكون درسا قاسيا لهم ٠

٤ ـ ألقى نابليون القبض على أعضاء لجنة الثورة وعلى زعمائها من المشايخ ، وهؤلاء لهم مكانتهم فى نفوس الشعب ، الذى ينظر اليهم نظرة الاعجاب والتقدير ، واليهم ألقى مقاليد أموره ، وهم الذين وكلوا عنه للدفاع عن مصالحه ، ولم يهتم نابليون بهذه المكانة التى كانت للعلماء فارتكب خطأ كبيرا حين قبض عليهم باعتبارهم زعماء الثورة ، وحوكم هؤلاء وحكم عليهم بالاعدام ، ومن هؤلاء الشيخ اسماعيل البراوى والشيخ يوسف المصيلحى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ سليمان الجوسقى ، وجاء فى مذكرات نابليون : ان رجال الشرطة قبضوا على ثمانين من أعضاء لجنه الثورة وسجنوهم بالقلعة وان أعضاء لجنة الثورة أخذوا بذنبهم، وقد ثبتتادانتهم فأصدر المجلس العسكرى فىيوم ٢٤ من أكتوبر ١٧٩٨ قرارا باعدامهم جميعا ونفذ فيهم الحكم ٠

وكان ممن ألقى القبض عليهم ابراهيم افندى كاتب جمرك البهار ، واتهم بأنه كان يثير الجموع ويوزع عليهم السلاح ، وانه كان يؤوى

الكثيرين من الثوار ، ومن عجب أن نابليون أفرج عنه لشفاعة الشيخ محمد المهدى والمسيو «بوسليج» مدير الشئون المالية، أما باقى الزعماء والشيوخ فقد جئ بهم الى القلعة تحت الحراسة المشددة فى ٣ من نوفمبر ، وتلى عليهم حكم الاعدام ، وأعدموا رميا بالرصاص ، وتولى تنفيذ الحكم فيهم « برتلمى » الرومي ويقول الجبرتى انهم بعد أن قتلوهم ألقوا بهم من فوق السور خلف القلعة وان أحدا لم يعلم بالمكان الذى دفنوا فيه وذكر الشيخ الشرقاوى فى كتابه تحفة الناظرين : أن الفرنسيس قتلوا من علماء مصر ثلاثة عشر عالما .

٥ ـ أصدر نابليون أوامره الى جنوده بأن يكونوا على أهبة الاستعداد فقد كان يتوقع أن تعود الثورة من جديد ومن أجل هذا نجده يجمع جنوده فى حى واحد ، لانه أصبح لا يأمن عليهم من الاهالى ، كما أنه أمر باخلاء المناطق المسكونة حول ميدان الازبكية ، حيث كان يقع معسكره ليسكنها جنوده ورجاله ، وفى ٢٧ من اكتوبر أصدر أمرا اذاعه بين الجنود ، أمرهم فيه ألا يبتعدوا عن معسكراتهم وقال فيه : لقد قتل بعض الفرنسيين فى يوم الثورة وهؤلاء من الذين لم يتبعوا الأوامر الصادرة اليهم ، وابتعدوا عن معسكراتهم غير حاملين سلاحا ، فعلى رؤساء الفرق ورؤساء الاقسام الادارية مراقبة الجنود لكيلا يبتعدوا ولا يضعوا عنهم السلاح ، وعليهم أن يراقبوا اتباع النظام والاوامر العسكرية بين الجنود ، وعلى كل فرنسى أن يكون شاكى السلاح ، تام الذخيرة ، واذا قامت قائمة فى المدينة فعلى كل فرد أن يلحق بفرقته أو الادارة التى يتبعها منتظرا ما يؤمر به ، ولا يمنعن الأمن من الحذر ، ولتكونوا فى وقت السكينة معدين لوقت الهياج لان عدم الاغراق فى الاطمئنان أدعى للاطمئنان .

وأصدر نابليون أمرا بأن يسترجع الجنود والضباط كل أسلحتهم التى كانوا قد بعثوا بها الى صناع الأسلحة الوطنيين لاصلاحها وحظر عليهم اصلاح الأسلحة عندهم .

وتنفيذا لهذه الاوامر حمل الجنود سلاحهم ، وعاشوا حياتهم فى خوف من ثورة جديدة ، وعاملوا الأهالى بعنف وقسوة وعاشت القاهرة فى ظل ارهاب ، فلا عدل ولا أمن ولا طمأنينة .

٦ ـ بعد أن انتهى نابليون من اخماد ثورة القاهرة واعتقال من أراد اعتقاله واعدام من شاء له أن يعدمه ، أبطل الديوان ، ومنع اجتماعه ولعله بذلك يكون قد أثبت أن الثقة بينه وبين المصريين قد انتزعت ولم يعد لها وجود ، وان ثورة القاهرة كانت هوة عميقة باعدت بين الأمة المصرية وبين الجيش الفرنسى .

٧ ـ كان من نتائج فقدان الثقة وعدم الاطمئنان الى المصريين وتوقع ثورتهم من جديد ، ان اتجه نابليون الى تحصين المدينة ليجعلها بمأمن من وقوع ثورة أخرى ، واتجه أول ماتجه فى هذا السبيل الى اقامة القلاع على التلال المحيطة بالمدينة ونصب فيها المدافع ، وهدم كثيرا من الأماكن فى ضواحى القاهرة كالجيزة ومصر القديمة وشبرا ، وحصن هذه الأماكن تحصينا منيعا ، وأقام المعاقل فى شوارع القاهرة ، وأصلح قلعة

الجبل ، وهدم مساجد متعددة ، وقطع بعضا من النخيل والأشجار ليستخدم أخشابها في اقامة الحصون والمتاريس ، كما هدم دورا كثيرة ، وانتزع نوافذها وأبوابها وأخذ أخشابها لتساهم في بناء الحصون ، وأصبحت القاهرة مكانا محاطا بسلسلة من القلاع والاستحكامات ، ومن أهم هذه القلاع « قلعة ديبوى » أقيمت قرب القلعة ، ليتيسر منها ضرب الأزهر اذا فكر المصريون فى الاجتماع بساحته مرة أخرى ، وقلعة سلكوسكي أنشئت فى جامع الظاهر (ميدان الظاهر) واستخدمت مئذنة الجامع كنقطة استطلاع ، وأقيمت بداخله مساكن وامكنة تسع ٦٠٠فارس بخيولهم ، وقلعة كامان ، وقلعة الناصرية ، وقلعة مويرور (فى حى طولون) .

وحصن نابليون جزيرة الروضة ، ووضع فى كل طرف من أطرافها بعض المدافع ، وحصن شاطىء النيل فى مقابل الجيزة ، وأقام فى فم الخليج قلعة حصينة سميت قلعة المجراه (السبع سواقى) وجعل من قصر ابراهيم بك (القصر العينى الآن) مستشفى عسكريا يسع ١٠٠٠ مريض وجريح ، وحصن نابليون الجيزة وجعلها مركزا للمدفعية ومخازنها ومستودعا للذخائر .

وبلغ عدد القلاع التى أنشأها الفرنسيون تسع عشرة قلعة ، سميت كلها بأسماء الضباط والجنود الذين لقوا حتفهم فى خلال الحملة واقامة هذا العدد من القلاع يدل دلالة قاطعة على مدىالفزع الذىأصاب الفرنسيين خلال ثورة القاهرة ، ويدل ايضا على مدى المقاومة العنيفة التى لقيها الفرنسيون من المصريين فى عهد الاحتلال ، ولقد جاء ذكر هذه الحصون والقلاع فى مذكرات الكولونيل «ديترو» فقال : ان الغرض من اقامة هذه الحصون هو استهداف مدينه القاهرة ، اذا قامت ثورة فيها ، وقد وصل بينها بطرق خارجة عن المدينة ولما كانت نية القائد العام متجهة الى جعل المستشفيات ومخازن الجيش بمعزل عن المدينة ، واسكان الفرنسيين فى حى من أحيائها ، فمن المحقق اننا نستطيع أن نتغلب على كل هياج فى القاهرة .

٨ ـ ذكرنا فى خلال الحديث عن اليوم الثانى للثورة الشعبية فى القاهرة ضد الفرنسيين أن نابليون بعث ببعض الجنرالات مثل الجنرال «لان» والجنرال «فو» الى ضواحى القاهرة ليحولوا بين سكانها وبين الانضمام الى الثورة فى القاهرة ، وذكرنا أيضا أن هؤلاء نجحوا فى صد جموع كثيرة من الاهالى كانوا فى طريقهم الى القاهرة للانضمام الى الثوار ، كما ذكرنا أن نابليون تمكن من عزل الثورة فى المدينة وعزلها عن البلاد المجاورة ، ولا شك فى أن الثورة التى شبت فى القاهرة فى اكتوبر كان لها صدى فى سائر البلاد ، وأن الأسباب التى دعت الى هذه الثورة كانت قد أدركت فى سائر الاقاليم حتى أن البلاد والضواحى القريبة من القاهرة اشتركت فعلا فى الثورة ، وقدمت اليها الرجال والعتاد ، فلما انتهت الثورة واستسلم الاهالى تحت ضغط القوة ، تعرضت القرى والبلاد المجاورة للانتقام من جانب الفرنسيين ، فقد أمر نابليون بعض قواته بالانتقال الى القرى التى اشتركت فى الثورة للبحث عن الاعيان

والمشايخ الذين ساهموا فى اشعال نيران الثورة واتجهت قوات نابليون الى القرى المجاورة ، واستدعى الضباط الفرنسيون العمد وكلفوهم تسليم الرسائل التى وردت اليهم ليلة الثورة ، والتى كانت تحمل اليهم دعوة للانضمام الى صفوف الثائرين ، وألقت القوات الفرنسية القبض على جماعة من الأعيان ومشايخ البلاد بتهمة الاشتراك فى الثورة وجاءت بهم الى القاهرة ، وأعدم بعضهم ، وفى هذا الصـــدد يقول الجبرتى : ان كبير الفرنسيين الذى بناحية قليوب حضر وبصحبته سليمان الشواربى شيخ الناحية وكبيرها فلما حضر حبسوه بالقلعة وقيل إنهم عثروا على مكتوب أرسله وقت الفتنة (يقصد ثورة القاهرة) الى سرياقوس لينهض أهل البلاد وقال نابليون فى رسالة الى الجنرال ليكلرك : انهم اعتقلوا الشواربى لانه اتضح انه كان يحرض أهالى البلاد المجاورة للانضمام الى الثورة ، وقال الجبرتى : انهم قتلوا الشيخ سليمان الشواربى ومعــه ثلاثة من عرب الشرقية وقطعوا رءوسهم بالرميلة .

وما حدث مع الشيخ الشواربى حدث أيضا مع زعماء القطا والنجيلة وكفر غرين ، وكانت تهمة هذه القرى أنها اطلقت الرصاص على الســفن الفرنسية الجارية فى النيــل ، وهددت الملاحة بين القــاهرة والرحمانية ، وذكرت جريدة كورييه دى ليجبت ان الجنرال «لان» هاجم القطا فى نوفمبر ١٧٩٨ ومعه قوة من ٤٠٠ جندى ، وأحرق القرية بعد أن هاجر منها أهلها

٩ ـ كان من أهم ما أعقب الثورة الشعبية فى القاهرة ضد الفرنسيين أن الفرنسيين أمروا بتأليف كتيبة من الاروام المقيمين فى القاهرة وفى رشيد وفى دمياط ، وكلفت هذه الكتيبة حراسة السفن فى النيل ، فان هـؤلاء الاروام أعلنوا ولاءهم للجيش الفرنسى ، وأراد نابليون أن يســتغل هــذا الولاء لحسابه فيوفر بعض الجنود الفرنسيين لاستخدامهم فى مهام أخرى أكثر أهمية ، ولعل نابليون حين فكر فى انشاء هذه الكتيبة كانت قد ازعجته حوادث مهاجمة السفن الفرنسية التى تعددت وكثرت من جانب المصريين ، فان جموع الاهالى كانت تهاجم الاسطول الفرنسى بصفة مستمرة ، وتطلق عليه الرصاص من الشاطئين ، وحدث أن جنحت سفينة تقل المسيو «سوسى» مدير مهمات الجيش عند كوم شريك ، ومعه عــدد من ضباط «أركان حرب » فهجم عليه الاهالى وقتلوا بعض الركاب ، وأصيب سوسى فى ذراعه اصابة خطيرة كما جرح قبطان السفينة والضــابط لاكوى . وحدث أيضا أن أرسل نابليون ياوره الكابتن جوليان برسالة الى الجنرال كليبر فى الاسكندرية والجنرال برويز فى « أبو قير » فجنحت به السفينة على الشاطىء الغربى من فرع رشيد عند قرية علقام (مركز كوم حماده) فهاجم الاهالى السفينة وقتلوا من عليها .

واتخذ نابليون قرارا آخر بخلاف تأليف كتيبة من الاروام لحمــاية الاسطول والمواصلات النيلية ، وكان القرار يقضى بانشاء أسطول نيلى مسلح ، ألفه من السفن الصغيرة الحربية التى نجت من موقعة «أبو قير» ومن المراكب المصرية التى استولى عليها الفرنسيون وأمدوها بالمدافع . وأمر نابليون بان تكون قواعد هذا الاسطول فى بولاق ومصر القــديمة ورشيد ودمياط ، وفى نوفمبر ١٧٩٨ سارت دوريات مسلحة من السفن

الحربية فى فرعى النيل ، تقوم كل منها بحراسة قطاع معين ، فمثلا قسم فرع رشيد ثلاث قطاعات مابين رشيد والرحمانية ، ثم مابين الرحمانية والطرانة ، ثم مابين الطرانة وبولاق ، وكذلك فرع دمياط فقد قسم قطاعات ثلاثة ، من دمياط الى المنصورة ، ومن المنصورة الى ميت غمر ، ثم من هذه الى بولاق ، وكانت الدوريات المكلفة بالحراسة تتكون من ثلاث أو أربع سفن مسلحة يقودها ضابط بحرى ، كان عليه أن يمر بسفنه فى القطاع المحدد ، وان يكتب الى القيادة العامة بتقارير مفصلة

ولا ننسى ان نشير الى عدة سفن مسلحة حددت لحماية مواصلات الجنرال ديزيبه فى الصعيد ، ولا يفوتنا ان نذكر بالفخر أن الفرنسيين أرادوا استخدام النوتية المصريين فى مراكبهم فأمتنع هؤلاء ، ورفضوا ان يكونوا فى خدمة محتل لبلادهم ، ولقى الفرنسيون الجهد فى هذا المجال ، وحاولوا بوسائل الاغراء والتهديد أن يصلوا الى بغيتهم ،ولكنهم قوبلوابصد عجيب فقد أبت وطنية المصريين أن تسمح لبعض منهم بخدمة الفرنسيين .

١٠ ـ بعد أن هدأت الامور فى البلاد ، وعاد الناس الى بيوتهم وتعرضت البلاد لموجة الارهاب العنيفة من جانب الفرنسيين ، رأى كبار العلماء أن يتدخلوا فى الامر ، فكتبوا الى نابليون يطلبون منه أن يخفف من وسائل التهديد والتعذيب رغبة فى أن تعود الطمأنينة الى النفوس ، فطاب منهم نابليون أن ينشروا بيانا على الناس ، يدعوهم الى الاخلاد الى السكينة فاستجاب له العلماء ، وأصدروا بيانا فى ٢٤ من أكتوبر ، طالبوا فيه الاهالى « عليكم ألا تحركوا الفتن ولا تطيعوا أمر المفسدين ، ولا تسمعوا كلام المنافقين ، ولا تتبعوا الاشرار ، ولاتكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين يقرءون العواقب ، لاجل أن تحفظوا أوطانكم ، وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم ... ونصيحتنا لكم الا تلقوا بأيدكم الى التهلكة ، واشتغلوا بأسباب معيشتكم ، وأمور دينكم . وادفعوا الخراج الذى عليكم . »

وتلقت جموع الشعب هذا البيان بالصد وعدم القبول ، ولعل مبعث ذلك أن الشعب كان يقاسى بمرارة فظاعة الجرائم الفرنسية ، هذا فوق أن الانباء قد تواترت بأن سلطان تركيا يعد جيشا لاخراج الفرنسيين من مصر .

واستدعى نابليون العلماء مرة ثانية وأمرهم باذاعة بيان آخر يوزع على الاقاليم ، لتهدئة خواطر الاهالى ، ولنفى ماانتشر بينهم من دعايات واشاعات ، واصدر العلماء بيانا آخر فى نوفمبر ١٧٩٨ ، جاء فيه أن المماليك هم الذين ينشرون هذه الاشاعات ، رغبة فى اثارة القلاقل بالبلاد بعد أن طردوا منها ، وطالب البيان المصريين « ننصحكم أيها المقيمون بالاقاليم المصرية ألا تحركوا الفتن ، ولا الشرور بين البرية ، ولا تعارضوا العسكر الفرنساوية بشىء من أنواع الاذية ، فيحصل لكم الضرر والهلاك ، ولا تسمعوا كلام المفسدين ، ولا تطيعوا أمر المسرفين ، وانما عليكم دفع الخراج ، لتكونوا بأوطانكم سالمين ، وعلى أموالكم وعيالكم امنين مطمئنين ... » .

والمتتبع للبيانات التى أصدرها هذا الفريق من العلماء يلمس منها أن هؤلاء العلماء هم أعضاء الديوان الذى أبطله نابليون ، ولم يكونوا من الزعماء الوطنيين الذين كانوا يثورون ضد الفرنسيين والذين تولوا قيادته فى ثورته ، والذين ضحى بعضهم بالروح من اجل حرية البلاد واستقلالها وسيادة أهلها وواضح من هذه البيانات أنها كانت تدعو الى السكينة ومصالحة المعتدين ، وانها كانت مملوءة نفاقا وسخفا ، ورغبة وضيعة فى استرضاء نابليون فمن ذلك مثلا ما جاء بالبيان الاول ... لانه (اى نابليون) رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة الفقراء والمساكين « ... ومن ذلك أيضا ما جاء فى البيان الثانى » .. لان حضرة سارى عسكر الكبير أمير جيوش بونابرت ، اتفق معنا على أنه لا ينازع أحدا فى دين الاسلام ، ولا يعارض فيما شرعه الله لنا من الاحكام ويرفع عن الرعية سائر المظالم ، ويقتصر على أخذ الخراج ، ويزيل ما أحدثه الظلمة من المغارم » .

هذا المديح الذى كاله هؤلاء العلماء من أعضاء الديوان لنابليون لا يستقيم أبدا مع حالة الارهاب التى عاشها الشعب فى ظل نابليون . فقد عاش الشعب فترة مظلمة ساد فيها الظلم والتعذيب ، والقتل والسجن ، والتخريب والتدمير ، فترة عنيفة فى حياة الشعب لا يزيل عنفها الكلام المعسول أو الوعد الجميل أو الالفاظ البراقة التى تختفى بين حروفها الرغبة فى استعباد البلاد واحتلالها واذلال أهلها .

١١ ـ قلنا ان نابليون أمر بتعطيل الديوان عقابا لأهل القاهرة على قيامهم بالثورة ، وفى ٢١ من ديسمبر ١٧٩٨ أعلن نابليون فى منشور أذاعه فى البلاد أنه قرر اعادة الديوان . وجاء فيه « من أمير الجيوش الفرنساوية ، خطابا الى جميع أهالى مصر الخاص والعام ، نعلمكم أن بعض الناس الضالين العقول الخالية من المعرفة وادراك العواقب ، أوقعوا الفتن والشرور بين القاطنين بمصر ، فأهملهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة ، والبارى سبحانه وتعالى أمرنى بالشفقة والرحمة على العباد ، فامتثلت أمره وصرت رحيما بكم ، شفيقا عليكم ، لكن كان حصل عندى غيظ وغم شديد ، بسبب تحريك هذه الفتنة بينكم ولأجل ذلك أبطلت الديوان الذى كنت قد رتبته لنظام البلد وصلاح أحوالكم من مدة شهرين ، والآن توجه خاطرنا الى ترتيب الديوان كما كان ... »

والمطلع على هذا البيان يلمس فيه :

(ا) محاولة نابليون اظهار سطوته وقوته « ان الذى يعادينى ويخاصمنى لا يجد ملجأ مخلصا ينجيه منى فى هذا العالم »

(ب) ادعاء نابليون اطلاعه على الغيب « واعلموا أنى أقدر على اظهار ما فى نفس كل واحد منكم ، لانى اعرف أحوال الشخص ، وما انطوى عليه ، بمجرد ماأراه وان كنت لا أتكلم ، ولا انطق بالذى عنده ... » .

(جـ) ارجاعه احتلال مصر الى أسباب وردت فى القرآن والى رغبة سماوية « قدر فى الازل انى اجىء من الغرب الى ارض مصر ... واجراء الامر الذى امرت به ولا يشك العاقل ان هذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه ، واعلموا أيضا أن القرآن العظيم صرح فى آيات كثيرة بوقوع الذى حصل . وكلام الله فى كتابه صدق وحق لا يتخلف » ..

وبعد ان أصدر نابليون منشوره هذا وضع نظاما جديدا للديوان فى حدود أكثر اتساعا من حدود الديوان القديم اذ جعله مؤلفا من هيئتين ... الديوان العمومى أو الديوان الكبير ، والديوان الخصوصى ... ويتألف الديوان العمومى من ستين عضوا معينين ، وهؤلاء ينتخبون من بينهم رئيسا للديوان ، واثنين من السكرتيرين ، واجتمع الديوان العمومى فى ٢٧ من ديسمبر ١٧٩٨ ، وكان يمثل مختلف هيئات الامة وطبقاتها (١٤ من **العلماء والمشايخ** ـ مثل الشيخ البكرى ، والشيخ المهدى ، والفيومى ، والدمنهورى وغيرهم و ٢٦ من **التجار والصناع** ـ مثل السيد العقاد المحروقى والحاج مصطفى شيخ العقادين والسيد محمد شيخ العطارين والحاج المسيرى من تجار الاقمشة والحاج سالم من الجواهرجية و١١ من **العسكريين** ، مثل يوسف شوربجى ، وعلى كخية ومصطفى الشركسى ، و٢ من **مشايخ الاخطاط** ، كشيخ العطوف وشيخ جزارى الحسينية ، ٤ **من الاقباط** ، كالمعلم لطف الله المصرى والشيخ ابراهيم مقار ، ٣ من الأجانب هم المسيو ولمار ، والمسيو كاف والمسيو بودوف .

ويلاحظ أن الديوان كما جاء فى أمر تشكيله « يتألف من هيئة تكون ممثلة تمام التمثيل لسكان القاهرة بحيث اذا خاطبت الحكومة الديوان تتحقق أنها تواجه فيه الرأى العام » .

ويتكون الديوان الخصوصى من ١٤ عضوا من أعضاء الديوان العام يجتمعون « للنظر فى مصالح الناس ، وتوفير أسباب السعادة والرفاهية لهم ، ومراعاة مصالح الجمهورية الفرنسية » ويكون لهذا الديوان رئيس وكاتم سر ، وانتخب الشيخ الشرقاوى رئيسا له ، والشيخ المهدى سكرتيرا أو كاتما للسر ، وكان الديوان الخصوصى يمثل هيئة العلماء والتجار ، والاقباط ، ومندوبين عن السوريين ، وثلاثة عن الاوربيين ، وأصدر الديوان الخصوصى عقب تشكيله فى يناير ١٧٩٩ بيانا أعلن فيه « ان نابليون قد عفا عن الثوار ، وأعاد الديوان » لاجل قضاء حوائج الرعايا ، وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام وتنظيمها على أكمل نظام وأحكام » .

١٢ ـ فى يناير ١٧٩٩ احتل أحمد باشا الجزار والى عكا قلعة العريش ، وكان هذا الاحتلال بداية لزحف الجيش العثمانى على مصر ، ورأى نابليون أن يتقدم هو لمواجهة الجيش الزاحف والقضاء عليه ، ثم احتلال سورية كخطوة لمواصلة زحفه الى الهند ، وأعد نابليون العدة للحملة الفرنسية على سورية ، ولكنه كان يعلم أن نفوس الاهالى فى القاهرة متحفزة للهياج ، متربصة للثورة ، وأن قيام الثورة فى أثناء

غيابه عن القاهرة وشغله بحملته على سورية سيؤدى الى قطع خط الرجعة على جيشه ، ولهذا قرر أن يتخذ من الخطوات ما يسمح بمنع وقوع اية ثورة فأمر بتقوية قلاع القاهرة ، واحكام الاتصال بينها ، وامدادها بالمدافع والذخائر والمهمات ، وكلف الجنرال كافريللى ودومارتان الاتصال به ، وكتابة تقرير له عن مركز الدفاع عن القاهرة فى حالة نشوب ثورة ، وعين الجنرال دوجا قومندان دمياط حاكما للقاهرة ، والوجه البحرى ووكيلا عنه فى غيابه ووحد القيادة فى المديريات فجعل مديرية الغربية والمنصورة تحت قيادة الجنرال فوجيير ، ومديريتى بنى سويف والفيوم تحت قيادةالجنرال زايونشك ، والبحيرة ورشيد تحت قيادة الجنرال مارمون ، وعين الجنرال وستنج قومندانا للقاهرة واختار نابليون أربعة من أعضاء الديوان هم الشيخ الفيومى والشيخ الصاوى والشيخ العريشى والشيخ الدواخلى وكذلك اختار ابراهيم افندىأدهم قاضى القضاة ومصطفىبك نائب الوالىلمصاحبته فى أثناء سيره الى سورية ولعله أراد بهذا الاختيار أمرين ٠

الاول : ان يفهم الشعب فى مصر أن الحملة على سورية تمت بناء على تفاهم مع أعضاء الديوان

الثانى : أن يكون هؤلاء رسل تفاهم بينه وبين الشعب العربى فى سورية ، لما لعلماء الازهر من نفوذ ومقام فى سائر أنحاء الشرق ٠

واجتمع نابليون قبلمغادرته القاهرة بأعضاء الديوان الخصوصى ، وأوضح لهم أن الغرض من الحملة على سورية هو محاربة المماليك وفتح طريق التجارة بين البلدين « ان الجنود الفرنساوية قتلوا المماليك الفارين بالصعيد ، واجلوا باقيهم الى أقصى الصعيد ، وأنهم متوجهون الى الفرقة الاخرى بناحية غزة ، فيقصونهم ويمهدون البلاد الشامية لأجل سلوك الطريق ومشى القوافل والتجارات برا وبحرا ، لعمار القطر وصلاح الاحوال » ، ودعاهم نابليون الى مراعاة حالة البلاد فى أثناء غيابه ، وأصدر أعضاء الديوان منشورا الى الأهالى يعلنون فيه أن نابليون سيغيب ثلاثين يوما يحارب خلالها ابراهيم بك والمماليك الهاربين معه .

واجتمع نابليون بالجنرال دوجا ورسم له سياسته الداخلية خلال فترة غيابه وتقوم هذه السياسة على أساس :

(أ) اظهار الاحترام والتقدير لاعضاء الديوان .

(ب) الاستعانة بأعضاء الديوان لتهدئة الخواطر اذا لزم الأمر .

(ج) اتخاذ الاحتياطات العسكرية فى المدينة .

(د) عدم ضرب المدينة بالمدافع الا فى حالة الضرورة القصوى « يجب الا تأمر بضرب المدينة بالمدافع من طابية ديبوى والقلعة الا حين تعجزك الوسائل كلها فانك لتعلم مبلغ الأثر السيىء الذى يحدثه هذا العمل فى مصر وفى سائر أنحاء الشرق » .

(هـ) التودد الى المصريين فى مناسباتهم الدينية واظهار مشاعر الفرنسيين فى هذه المناسبات فى صورة تبدو واضحة للأهالى[1]
وتودد نابليون كثيرا الى عامة الناس ، حتى أنه قبل سفره بأيام أمر بأن يكون الاحتفال برؤية رمضان فخما عظيما واشترك هو فيه ، وجعل الاحتفال يستمر أربعة أيام .

وما دمنا نتحدث عن محاولات نابليون فى اجتذاب قلوب المصريين فلا بد لنا أن نشير الى شىء هام ، وقع فى يافا بالنسبة للمصريين الذين كانوا فى المدينة عند استيلاء نابليون عليها فثابت من التاريخ أنه قتل اهلها ومن وجد بها من العثمانيين ، وأطلق لجنوده العنان فارتكبوا فظائع تقشعر منها الابدان ، وكان يوجد بالمدينة ٤٠٠ من المصريين ، كانوا قد خرجوا اليها بعد انتصار نابليون فى معركة الاهرام وكان من بينهم عمر مكرم نقيب الاشراف فجمع نابليون المصريين وحال بينهم وبين جنوده ، فلم يقتل مصرى واحد ، واكرمهم نابليون وبعث بهم جميعا الى مصر ، وفى ذلك قال الجبرتى : « ان السيد عمر افندى نقيب الاشراف حضر الى دمياط وصحبته جماعة من أفندية الروزنامة وغيرهم ، وذلك أنهم كانوا بقلعة يافا ، فلما حاصرها الفرنساوية . وملكوا القلعة والبلد ، لم يتعرضوا للمصريين ، وطلبهم نابليون اليه وعاتبهم على نقلهم وخروجهم من مصر ، وانزلهم فى مركب ، وأرسلهم الى دمياط من البحر ، فحضر بعض الاعيان للاقاته وركبوا معه بعد أن مكث هنيهة بزاوية على بك التى بساحل بولاق حتى وصل الى داره ، وتوجه فى ثانى يوم مع الشيخ المهدى ، وقابل سارى عسكر ، فبش له ووعده بخير ، ورد اليه بعض تعلقاته ، واستمر مقيما بداره ، والناس تغدو وتروح اليه كالعادة » .

ومما هو جدير بالذكر أن نابليون أراد وهو فى يافا أن يلحق المصريين بجيشه ، ليقاتلوا تحت امرته ، ولينضموا فى قتالهم للعثمانيين الى جانب الفرنسيين ، ولكن المصريين أبوا ذلك ، وهم أسرى بين يديه ، مما يؤكد شعور المصريين حيال نابليون ، فهم لم يتركوا فرصة الا وعبروا فيها عن مشاعرهم وعواطفهم تجاه الفرنسيين، وعن رغبتهم الأكيدة فى التخلص منهم ، وانقاذ بلدهم من حكمهم ، ولما فشل نابليون فى مسعاه لم يغضب لما أبداه المصريون ، وانما بعث بهم الى بلدهم ، رغبة فى اظهار حسن نواياه ناحية المصريين ، وكان يأمل أن يجتذب قلوبهم ، باعادة هؤلاء الى ديارهم وذويهم ووطنهم .

---

(١) وفى ذلك قال الجبرتى وهو يصف حالة البلاد بعد غيبة نابليون خلال شهر رمضان ، وموقف الفرنسيين من الاهالى « صار الفرنساوية يدعون أعيان الناس والمشايخ والتجار للافطار والسحور ويعملون لهم الولائم ويقدمون لهم الموائد على نظام المسلمين وعاداتهم .. ويذهبون ويحضرون عندهم الموائد ويأكلون معهم فى وقت الافطار ويشاهدون ترتيبهم ونظامهم ويحذون حذوهم » وقال الجبرتى أيضا انه لما جاء يوم العيد أطلق الفرنسيون المدافع وركب أكابر الفرنسيين وطافوا على أعيان البلد وهنئوهم بالعيد .

الباب السادس

تجدد النضال الشعبي في الوجه البحري

كان تفوق الفرنسيين فى العدد والعدة ، العامل الأول فى فشل الثورات الشعبية المختلفة التى قامت فى جميع أنحاء البلاد ، والمتتبع لهذه الثورات ، يجد ان الشعب المصرى ، وقف وقفات بطولية مع انه أعزل من السلاح ، لا يملك القوة المادية التى يستطيع بها مواجهة الفرنسيين ، وبرغم أن نابليون نجح فى أن يسود السكون أنحاء البلاد ، الا أن تحركه الى سورية ، وابتعاد جزء كبير من جيشه عن البلاد ، شجع الثوار والوطنيين فى مصر ، على الانتقاض من جديد ضد الفرنسيين .

وفى أواخر فبراير ١٧٩٩ بدأ هاتف الثورة يطوف بالنفوس ، وظهرت بوادرها فى الشرقية حيث كان الفرنسيون يمرون بالمدن والقرى لمصادرة الجمال والحمير والماشية قوة وقهرا مما أثار النفوس .

وبدأت تقع مصادمات اتسع نطاقها حتى شمل مناطق متعددة فى الشرقية :

١ — فى ٢٨ من فبراير ١٧٩٩ خرجت كتيبة من بلبيس كلفت بمصادرة حيوانات الحمل لخدمة الفرنسيين، فلما وصلت هذه الكتيبة الى بردين ، تجمع أهالى القرية وحملوا السلاح ، وقرروا الوقوف فى وجه الفرنسيين ودعوا اخوانهم من أهالى القرى المجاورة المساهمة والمعاونة وحاول قائد الكتيبة أن يفاوض شيخ البلد ، فرفض الأهالى مفاوضته ، ورأى القائد الفرنسى أنه من المخاطرة مواجهة هذه الجموع الثائرة فعاد ادراجه وأبلغ قومندان المديرية ، فعزز الكتيبة بقوة أخرى ، وعادت الى بردين ، فوجدت الأهالى على أتم الاستعداد لمواجهتهم ، وحاول القائد دعوة شيخ البلد للتفاهم معه فأبى أن يسير اليه وذهب أربعة من الجنود الى باب القرية ، فانهال عليهم الرصاص ، وبدات معركة حامية الوطيس استمرت ساعتين . انهزم على أثرها الفرنسيون وولوا هاربين والأهالى يتعقبونهم ، حتى وصلوا بلبيس . وانتشر خبر الهزيمة فى أنحاء الشرقية ، وانسابت روح الثورة الى جميع القرى ، واستقر الرأى العام على الزحف الى بلبيس وطرد الفرنسيين منها ، فعهد الجنرال دوجا الى الكولونيل ديرانتو أن ينتقم وأن يقضى على الثورة وأن يمنع انتشارها . فسار هذا على رأس قوة كبيرة الى بردين فى ١٦ من مارس ، واستولى على المدينة واضرم فيها النيران ، ثم تحرك فى ١٧ الى الزنكلون فوجد أهلها قد غادروها ، ولقد أشار الجنرال برتييه الى حادثة بردين فى كتابه « حروب نابليون فى مصر » فقال : ثارت قرية بردين بمديرية الشرقية فسار اليها الكولونيل ديرانتو ، وهو ضابط ذو كفاية على رأس كتيبة من الجنود فأخمد ثورتها ، وأضرم النار فيها » .

وحدث فى هذه الاثناء ما يعرف باسم ثورة أمير الحج ، فقد أراد نابليون عند ارتحاله عن القاهرة ان يصحب معه القائد التركى

وبعض العلماء ــ كما سبق القول ــ وعند بلبيس تخلف هؤلاء ، واقاموا في القرين ، ثم إعلنوا أنهم لن يواصلوا التقدم مع نابليون ، وتولى امير الحج مصطفى بك الدعوة الي الثورة ضد الفرنسيين في منطقة الشرقية ، وامتدت دعوته الى مديرية الدقهلية ، وانضمت جموع كثيرة اليه فسار ومعه آلاف من الأهالي من كفور نجم الى دقادوس وميت غمر ، وكان الاهالي ينضمون اليه خلال تحركه ، وفي ٢٥ من مارس وصل تجاه ميت غمر وهناك التقى بمجموعة من المراكب الفرنسية كانت تسير من القاهرة في طريقها الى دمياط ، حاملة الذخائر والاقوات والامدادات للجيش الفرنسي في سورية . فهاجم مجموعة السفن ، واستولى عليها ، وقتل من فيها من الفرنسيين ، وأخذ ما بها من الذخائر والمدافع . وعجزت السفينة الحربية التى كانت تحرس المراكب عن رد الثائرين . وجرح قبطانها ورجالها ، فعادت السفينة الى القاهرة .

وهنا أحس الجنرال دوجا بخطورة الموقف خشية أن تمتد الثورة فتؤدي الى عواقب لا يستهان بها فتدارس الأمر مع المسيو بوسليج . وقرر مكافحة الثورة بشتى الطرق . وجمع الديوان الذى وافق على تجريد مصطفى بك من امارة الحج ، وكان الهدف من ذلك ازالة منزلته التى كانت له في النفوس بوصفه أميرا للحج . وألقى الفرنسيون القبض على وكيله الذى كان ناظرا للكسوة ، وعلى ابن أخيه وعلى باقي أتباعه وسجنوهم بالجيزة ، ثم كلف الجنرال لانوس قومندان المنوفية التحرك بقواته الى الشرقية كامداد بالنسبة لقلة القوات فيها ، فاتجه اليها ومعه ستمائة من الجنود ، وانضم اليهم الكولونيل ديرانتو والجنرال فوجيير . وبدأ الثلاثة يطاردون مصطفى بك الذى أحس بضعفه أمامهم ، وبعدم قدرته على مواجهتهم فأخذ يفر من بلد الى آخر حتى أوغل في الصحراء الشرقية وانتهى امره وتشتت انصاره ، وسقط نفوذه ، وقال الجبرتي انه « لم نعلم عنه حقيقة حال . وقيل انه ذهب الى الشام » ، وذكر نيقولا الترك أنه لجأ الى الجزار فرابه أمره وأمر بقتله . »

٢ ــ ان الثورة التي انتهت في الشرقية تجددت في أواخر شهر مايو ١٧٩٩ في مديرية القليوبية وفي منطقة ميت غمر والبلاد المجاورة لها ، اذ احتشد عدد كبير من الثوار في هذه المنطقة ، وهاجموا في ٣٠ من مايو سفينة حربية فرنسية قادمة من سمنود ، واستولوا عليها وقتلوا خمسة من جنودها ، واستولوا على اربعة مدافع كانت بها ، فتحرك الجنرال لانوس من منوف الى ميت غمر لاخماد الثورة . وانسحب الثوار الى كفور نجم حيث دارت في ٥ من يونيو معركة عنيفة على شاطىء بحر مويس ، خسر فيها الثوار عددا من القتلى ، وهزم الثوار ، واخذ الجنرال لانوس ينتقل من مكان الى آخر حتى قضى على الثورة نهائيا ، ثم اتجه الى ميت غمر ، فأمر باحراقها وتدميرها « حتى لم يبق فيها حجر على حجر » .

٣ ــ في ١٥ من فبراير كتب الجنرال مينو حاكم رشيد يقول « لقد بدأنا نشعر باختمار فكرة الثورة في البلاد المجاورة لرشيد ،

وأخذ اهالي بعض القرى الثائرة يتهـــددون الملاحـــة فى النيل ، وقد هاجموا سفينة تحمل البريد ، فاضطرت ان تعود ادراجها ولابد لنا ان نحميها بسـفينة حربية لتستأنف سيرها »

وكان هذا الكتاب تعبيرا عن الهياج الشـــديد الذى ملأ نفوس الاهالى فى غربى الدلتا ، وقد بدأت ثورة أخـرى فى منطقة رشـيد وما حولها فى مارس ، ولعل الدافع المباشر لحالة الهياج هو أن الجنرال مارمون قومندان الاسكندرية ، فرض سلفة اجبـــارية على مديرية رشيد ، فدفعت رشيد قسطها ، ودفعت فوة ثلثى المفروض عليهـــــا . أما باقى البلاد فى المديرية فقد امتنعت عن الدفع ، ولجأ الفرنسيون الى القوة فسارت حملة مسلحة بقيادة الكولونيل جوليـــان لاجبـــار الاهالى على الدفع ، فعمت الثورة برنبال ومطوبس وشوباس عمير والقنى ، والسعدة ، وسارت الحملة من رشيد ، وعندما وصلت الى شباس عمير لم تســـتطع أن تستولى عليها ، فجـــاءها مدد ، وهاجمت المدينة ، وضربتها بالمدافع وهدمتها . وفعلت الشيء نفسه معالسعدة وبرنبال .

٤ ـ فى أواخر شـــهر ابريل ١٧٩٩ شبت الثـــورة فى البحيرة وكانت اشد خطرا من ثورة الشرقية اذ ظهر فيها رجل جاء من درنة بطرابلس الغرب وادعى المهـــدية ودعا النـــاس الى القتال ومقـــاومة الفرنسيين ، فانضمت اليه جموع كبيرة من أهالى البلاد ، وانحـاز اليه سكان القرى ، وسار الرجل بهذه الجموع الى دمنهور ليلة ٢٤ من ابريل ، حيث كانت ترابط قوة من الفرنسيين بقيادة مارتان ، وهـاجم المهدى القوة وقتل رجالها جميعا ، وقال فى ذلك الجبرتى « ان طائفة من عرب البحيرة يقـــال لهم عرب الفز جاءوا وضربوا دمنهور وقتلوا عدة من الفرنســـيين ، وعاثوا فى نواحى تلك البـــلاد حتى وصلوا الى الرحمانية ورشيد ، وهم يقتلون من يجدونه من الفرنسيين » .

كان انتصار المهدى ورجاله فى دمنهور ذا صدى كبير فى انحاء البحيرة ، وآمن الناس بقوته . وظنوا أنه صاحب قوة خارقة ، فأسرعوا ينضمون اليه حتى زاد عدد اتبـــاعه . فتحرك من دمنهور متجها الى مديرية الغربية ، ووصلت الى دمنهور بعد تركه اياها حامية فرنسية بقيادة الكولونيل ليفيفر كانت تقوم بجباية الاموال من البلاد ، فلما علم بمصير الحامية الفرنسية ، رفض أن يتعقب المهدى واسرع الىالرحمانية وطلب من الاسكندرية المدد ليستطيع مواجهة المهدى فبعث الجنرال مارمون بقوة مزودة بالمدافع بقيادة ريدون ، فتحركت هذه القوةقاصدة الرحمانية لتنضم الى القوة الفرنسية بها ولكنها التقت برجالالمهدى. ودار بينهما قتال استمر خمس ساعات انتصر فيها المهدى ، وعادت قوات ريدون الى الاسكندرية وعاد الجنرال مارمون فبعثالىالكولونيل جوليان يطلب مددا سريعا الى الرحمانية ، فوصلها هذا المدد وانضم الى القوة الفرنسية بها ، وتحركت لتلتقى برجال المهدى فى ٣ منمايو بسنهور البحيرة ، حيث دارت معركة عنيفة قاسية ، كان رجالالمهدى فيها ١٥ الف راجل ، ٤ آلاف من الفرسـان ، واستمر القتال سبع ساعات ، دارت فيها مجزرة فظيعة ابلى فيها الفلاحون والمواطنونبلاء

حسنا ، واظهروا شجاعة واستخفافا لا نظير له بالموت ، كما بذل الكولونيل ليفيفر كل ما لديه من خبرة حربية وقام بالهجوم اكثر من عشرين مرة ، وحصد الكثير من الثوار ببنادقه ومدافعه ، واستمر القتال حتى جاء الليل ، ونال الفرنسيين تعب كبير ، وفكر ليفيفر فى الانسحاب والاتجاه الى الرحمانية ، وبرغم ان الاهالى كانوا يسدون عليه الطريق ، الا أنه استطاع أن يضم صفوف رجاله ، وان يخترق الجموع وأن ينسحب بعد أن تكبد خسائر فادحة ، وانتهت المعركة بفوز الثوار وارتداد الفرنسيين الى الرحمانية .

وتقدمت جموع الثوار الى الرحمانية لاحتلالها . ولكنهم ارتدوا عنها فعادوا الى دمنهور .

وفى هذه الاثناء عهد الى الجنرال لانوس بالتحرك الى البحيرة للقضاء على ثورة المهدى . فغادر ميت غمر فى ٥ من مايو قاصدا البحيرة . وانضم اليه جنود الجنرال فوجيير ، الذين كانوا فى الغربية . واتصل لانوس بقوات الرحمانية . ثم تقدم الى دمنهور واستطاع أن يدخلها وان يدمرها وأن يقتل أهلها . ويصف ريبو دخول لانوس دمنهور فيقول « بعد أن احتل الجنود دمنهور قتلوا من صادفوه من رجال المهدى جميعا ولما كان أهل دمنهور هم أول من اتبع المهدى من سكان البحيرة . فقد أراد الفرنسيون أن يطبعوا هذه المدينة بطابع الغضب والانتقام . فأحرقوا مساكنها بالنار ، وقتلوا كل من وجدوه من الشيوخ والنساء والأطفال بحد السيف ، وفى اليوم التالى كانت دمنهور ركاما من الاحجار السوداء ؛ اختلطت بها أشلاء الجثث ودماء القتلى .. ووصف الجنرال لانوس بنفسه ما ارتكبه من فظائع فى دمنهور فقال « كانت مدينة دمنهور وأهلها هدفا لانتقام الجنود ، وأمرت بتسليم المدينة لفظائع النهب وسفك الدماء ، والآن لم يعد لدمنهور وجود وقد قتل من أهلها نحو ١٢٠٠ ، ١٥٠٠ ماتوا قتلا أو حرقا » وقال الضابط ليفيفر « لقد حاصرنا دمنهور وأحرقناها ونهبناها واستولى جنودنا فيها على غنائم وأسلاب عظيمة » .

وتعقب الجنرال لانوس قوات المهدى بعد ذلك حتى حدود مديرية البحيرة ، وبذلك يكون الفرنسيون فى خلال غياب نابليون عن مصر قد استطاعوا اخماد كل الثورات فى الوجه البحرى . واستتب لهم الامر فى البلاد ، الا ان الهدوء الذى شمل البلاد كان هدوءا يخفى وراءه انفعالات ورغبات وعاصفة متحفزة على وشك ان تعم البلاد .

٥ — فى ١٤ من يونيه ١٧٩٩ عاد نابليون الى مصر بعد أن فشل فى حملته على سورية ، واحس نابليون على أثر عودته بأن البلاد تغلى ، وأن الشعب متحفز للهياج وأن الهدوء الذى يسود البلاد انما هو غشاء ستمزقه الحوادث ، وكان يدرك أن الشعب هادىء اذعانا لحكم القوة ، ولهذا أخذ يرقب الاحداث ويستعد لمواجهة ثورة جديدة .

وحدث فى هذه الاثناء ان بعض المماليك بقيادة مراد بك تحركوا الى وادى النطرون قاصدين البحيرة ليلتقوا بالجنود التركية التى كان قد تردد انها على وشك النزول على سواحل مصر ؛ كما حدث أن تحرك

عثمان الشرقاوى قاصداً بوزخ السويس لملاقاة ابراهيم بك ، ولم يشأ نابليون أن يترك لهؤلاء حرية التحرك ، فبعث للجنرال وستنج والجنرال مورا لمواجهة مراد بك ، ولكن مراد بك أبى ان يخوض اية معركة وفر الى الصعيد كما هى عادته عند كل لقاء له مع الفرنسيين ، وهاجم الجنرال لاجرانج عثمان بك الشرقاوى فى السبع آبار وهزمه واستولى على معسكره وتوسع نابليون فى سياسة التحصين فأمر باستئناف اعمال التحصين فى الصالحية وبلبيس ودمياط وابو قير والاسكندرية، لتكون هذه المناطق كلها صالحة للدفاع .

وحدث فى هذه الفترة أن رست بعض السفن العثمانية بجنودها على شواطىء البحر فيما بين « أبو قير » والاسكندرية ورشيد ، وبدأت معارك متعددة بين الفرنسيين والاتراك انتهت بانتصار نابليون انتصارا كبيرا . وخاصة فى موقعة « أبو قير » البرية ، واستطاع نابليون فى خلال فترة قصيرة أن يحرز أكبر انتصار له فى تاريخ حروبه اذ قضى على الجيش التركى خلال عشرين يوما .

وأراد نابليون أن يؤثر فى نفسية المصريين وان يحطم فيهم كل رغبة فى الثورة ، وأن يشعرهم بقوته باستطاعته القضاء على أية حركة تقوم ضده ؛ فجمع فى ميدان الازبكية أسراه من الترك ، وجعل الناس يشاهدونهم وهم وقوف فى وسط الميدان ، ثم وزع هؤلاء الأسرى فى أماكن متعددة ، هذا فوق أنه امر باجراء عرض لجنوده المنتصرين فى شوارع القاهرة وميادينها ليشعر الناس بقوته ، فيفل من عزمهم ، ويضعف من رغبتهم فى المقاومة ، ويجعلهم يؤمنون بأن جيش فرنسا لا يهزم ولا تؤثر فيه الحوادث والاحداث .

الباب السابع
النضال الشعبي في عهدي كليبر ومينو

- ١ -

في عهد كليبر

تحول في سياسة نابليون ...

بدأ نابليون يتجه ناحيــة الغرب بدل الشرق ، وبدأ يفكر في أن مستقبل فرنسا سيتقرر على ضفاف الراين وليس على ضفاف النيل، ولعل هذا التحول في سياسة نابليون يرجع الى عوامل ثلاثة :

أولا : برغم انتصـــار نابليون العظيم في معركة « أبو قير » البرية على الجيش العثماني فان تركيا كانت قد أعدت جيشا آخر بقيـــادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا ، ليتقدم الى مصر ويقوم باحتلالها عن طريق برزخ السويس ، ومعنى هذا ان انتصار نابليون الســـاحق في « أبو قير » لم يكن سوى هدنة مؤقتة ، يواصل بعدها الجيش الفرنسي جهده وقتاله من أجل بقائه في مصر ، ومن أجل محافظته على انتصاراته بها ، وكان لابد للجيش الفرنسي من أن يتلقى امدادات جديدة حتى يستطيع بها أن يدخل المعركة القادمة وأن يحرز فيها انتصـــارا ، والحوادث التي كانت تجرى في فرنسا في هذه الآونة كانت تؤكد أن فرنسا لا تستطيع أن تمد نابليون بجنـــدي واحد كما سيأتي ذكره فيما بعد ... المهم أن تركيا كانت بالمرصاد لنـــابليون ولم يقعـدها انهزامها في « أبو قير » عن مواصـــلة السعي لدحـر نابليون وطرده من مصر .

ثانيا : الشعور الشعبي العـــام في مصر لم يتغير تجاه نابليون وتجاه الحملة الفرنسية ، فالغضب والكره كانا يسيطران على نفسية الشعب المصري سيطرة بعيدة المدى عميقة الاثر ، حتى ان نابليون حين تحـــرك لمواجهة الجيش العثماني في « أبو قير » ، دعا أعضـــاء الديوان وطلب منهم المعـــاونة في دعوة الشعب الى الهدوء والتزام السكينة ، ولقد أحس الفرنسيون جميعا بأن المصريين يفرحون اذا بلغتهم أنباء انتصار العثمانيين ، وكانوا يظهرون كراهيتهم للفرنســـيين حتى أعضـــاء الديوان فقد كانوا يظهرون للفرنسيين غير ما يبطنون ، وكانوا يتمنون هزيمتهم ، فلما جاءت الانباء بانتصارهم قابل أعضـــاء الديوان هذه الانباء بالفتور والاعراض كما كانت تبدو منهم من حين الى آخر الروح العدائية للفرنسيين ، ومن هذا أنهم كانوا يعارضون محافظ المدينة في تصرفاته ، لانه كان نصيرا للفرنسيين مؤيدا لهـم وفي ذلك يقول الجبـــرتي : « ان الاغا كان يريد أن يقتل في كل يوم أناسا بأدنى سبب ، فكان المهـدي والصـــاوي يعارضانه ويوبخانه

ويخوفانه ســـوء العاقبة وهو يرسل الى ســـــارى عسكر فيطالعه بالاخبار ويشكو منهما » ... ولقد بلغ الخلاف بين أعضاء الديوان والفرنسيين حدا بعيدا حتى أنهم اتهموا بأنهم على اتصال بالجيش التركى ، ويقول ريبو « فى كل يوم كانت تقع حوادث تنم عن تغيير مسلك الديوان حيال السلطة الفرنسية ، فتارة كان يتعدى اختصـــاصه ويفتات على سلطة الهيئات الأخرى بحالة لا يمكن الصبر عليهـــا وطورا كان ينازع رؤساء الشرطة سلطتهم ويشتد الخلاف لاخلاء ســـبيل بعض الاهالى المذنبين ، وآونة كان ينقص الضرائب المفروضـــة على مشايخ البلاد ، وفى كل ظرف كانت تبدو على أعضائه روح جـديدة مشربة بالعداء للفرنسيين » .

المهم ان الفرنســـيين كانوا فى خوف من هيـــاج الخواطر فى مصر ، وكانوا يتوقعون حدوث اضـــطراب فيها ، وأن المصريين كانوا يجاهرون بعدائهم للفرنســـيين ، وكراهيتهم لهم ، وكانوا ينتظرون الفرص للانتفاض والثورة عليهم .

ثالثا : تضعضع مركز فرنسا وتحرج فى أوربا ، وتلقى نابليون معلومات تؤكد انزال الجيوش الفرنسية فى النمسا وايطاليا ، وخطورة الحالة فى فرنسا بسبب تألب الدول الاوربية عليها فقد شبت الثورة فى البلاد التى فتحتها فرنسا ، وفقدت فرنســـا أملاكها فى المانيـا وايطاليا ، واشتد الســخط فى داخل البلاد على حـــكومة الادارة ، وأخذت انجلترا تشن الغارات فى البحار على أملاك فرنسا ، وتعاونت مع روسيا وتركيا فحاصرت جزيرة مالطة وكرفو ، وكانت فرنسا تغلى فى الداخل ، لان الاهالى القوا على عاتق حكومة الادارة تبعة الهـزائم المتوالية والخسائر المتتابعة ، ورأى نابليون خلال هـــذه الصور ان فرنسا أصبحت فى حاجة اليه لينقذها ويرد اليها هيبتها وأملاكها .

مغادرة نابليون مصر ...

ومن هنا بدأ نابليون يدرك اهمية وجوده فى فرنسا ، ويرى أن وجوده هناك اكثر اهمية من وجوده فى مصر ، ولهذا قرر أن يعـود الى الغرب بعد أن فشلت كل آماله فى الشرق ...

المهم هو أن نابليون قد اهتزت فى نظره الصور الجميلة التى كان يرجو ان يراها فى مصر وفى الشرق ، واصبحت آماله فى انشاء دولة شرقية مبددة منتهية .

فى ٢٦ من مايو ١٧٩٩ بعثت حكومة الادارة الى نابليون رسالة تطلب منه أن يعود الى فرنسا ، جاء فيها « ان الجهود الخارقة للعادة التى تبذلها النمسا والروسيا ، والحالة الحرجة الخطيرة التى وصلت اليها تستدعى أن تجمع الجمهورية قواتها الحربية ... « يسر حكومة الديركتوار أن تراكـــم على رأس جيوش الجمهـــورية التى توليتم الى الآن قيادتها بكل جدارة وفخار » .

وتلاقت رغبة نابليون مع رغبة حـــكومة الادارة ، فارتحل عن

القاهرة فى ١٨ من اغسطس ١٧٩٩ فى تكتم شديد حتى انه اعلن أنه متجه الى منوف للتفتيش على أحوال البلاد ، ثم أعلن نابليون فى رسالة الى الديوان انه قد سافر الى بلده ليغيب هناك ثلاثة أشـهر ، ثم يعود من جديد ومعه امدادات ، بعد أن يكون قد نشر سيادته على البحر ، وأعلن فى رسالته انه عين الجنرال كليبر قائدا عاما للقوات الفرنسية ، وقد كتب نابليون رسالة الى كليبر عهد فيها اليه بتولى قيادة الحملة ورسم له الخطة التى يتبعها فى مصر خلال غيبته .

وبسفر نابليون وتولى الجنرال كليبر قيادة الجيش الفرنسى تبدأ مرحلة جديدة من مراحل الكفاح الشعبى فى مصر ضد الفرنسيين .

مقارنة بين نابليون وكليبر ...

وصل كليبر الى القـاهرة فى ٣١ من اغسطس ١٧٩٩ ، وبدأ الناس فى القاهرة ينظرون الى القائد العام الجديد ، ثم يفرقون بينه وبين القائد الذى رحل وتبين لهم أن القائد الجديد يختلف عن نابليون فى عدة أمور :

١ ـ فهو تنقصه مقدرة نابليون على كسب القـلوب ومباسطة الجلساء ومحاولة جذب الجماهير اليه ، فالناس كانوا يعرفون عن نابليون انه حلو الحديث يداعب الناس ويتقرب اليهم أما كليبر فقد كان جافا مع الناس ، أحاط نفسه بمظاهر الأبهة والجبروت ، وفى ذلك يقول الجبرتى « ان اكابر البلد من المشايخ والاعيان ذهبوا اليه لمقابلته والسلام عليه فلم يروا منه بشـاشة ولا طلاقة وجه مثل بونابرت فانه كان بشوشا يباسط الجلساء ويضحك معهم » ... وفى ذلك أيضا يقول ريبو « ان بونابرت كان يمتاز بأساليبه البسيطة المألوفة وعاداته البعيدة عن الفخفخة والأبهة ، اضف الى ذلك قامته القصيرة وقوامه الضئيل ، ومع ذلك فقد كان المصريون يقدرون عظمة بونابرت فيقولون عنه بونابرت الكبير فى حين كانوا يقـولون عن خلفه كليبر الطويل » .

٢ ـ كان كليبر يهتم بمظهره فطالب الناس بأن يؤدوا له ما كان يؤدى للباشوات والبكوات المماليك من مظاهر الاجـلال والتكريم وهو بطلبه هذا كان ينفر الناس منه ولا يجتـذب اليه القلوب ولا يحبب اليه النفوس ، فكان جنوده يأمرون الناس بالوقوف فى أثناء مروره ، وبتقديم فروض الطاعة بصورة منفرة ووصف الجبرتى موكب كليبر وهو يمر بالقاهرة فقال : « ركب سارى عسكر الجديد من الازبكية ، ومشى فى وسط المدينة فى موكب حافل حتى صعد الى القلعة ، وكان امامه نحو الخمسمائة قواس وبايديهم النبابيت ، وهم يأمرون الناس بالقيام له والوقوف على الاقدام لمروره ، وكان صحبته عدة كثيرة من خيالة الافرنج وبأيديهم السيوف المسـلولة والوالى والاغا وبرتلمى بمواكبهم وكذلك القلقـات والوجاقلية وكل من كان مولى من جهتهم ومنضما اليهم » .

٣ ـ من أهم ما كان يتميز به كليبر عن نابليون أنه كـان يكره

الالتجاء الى فرض الغرامات والقروض الاجبـــارية ، حتى انه كثيرا ما كان يختلف مع نابليون بهذا الخصوص ، وكان لا يتردد فى طلب اعفائه من منصبه حين كان يتولى منصب محافظ الاسكندرية حتى لا يجارى نابليون فى فرض الغرامات والقروض .

وحين تولى كليبر الأمر حاول أن يتقرب الى المصريين ومن أجل هذا اتخذ خطوتين هما :

(١) التقى بأعضاء الديوان وتحدث اليهم وقدم لهم سياسته وجاء فى قوله لهم : « انى اريد ان احييكم على تمنياتكم بأعمـــالى لا بأقوالى ، على ان الأعمـــال تأتى بطيئة ، ويظهر أن الشـــعب متشوق الى معرفة المصير الذى ينتظره فى عهد الرئيس الجديد . فقولوا للشعب ان الجمهورية الفرنسية باســـناد حكومة مصر اليه ، كلفتنى أن أسهر على سعادة الشعب المصرى . وأن هذه المهة من بين مهمات مركزى أحبها الى قلبى » .

ووعد كليبر العلماء بأن يحترم شعائر الدين تماما كما كان يحترمها نابليون . ويقـــدر شعائر المسلمين الدينية ، كما كان يفعل سلفه ، ثم هو بعد ذلك يعد بأن يسعى جهده لكسب محبة العلماء والمشايخ والأعيـــان ، وأن يتبع فى حكمه خطة العـــدل والنزاهة .

(٢) اتجـــه كليبر الى الديوان فأحدث به بعض التعديلات وأجـــرى تقسيما اداريا فى البلاد فجعلها ثمانية اقاليم وحـــدد لكل اقليم عاصمة : طيبة . المنيـــا . القـــاهرة . الشرقية . الاسكندرية . الغربية ، دمياط ، المنوفية

قابل المصريون حكم كليبر بشىء من التحفظ .وكانت حالة البلاد فى أيامه الأولى مستتبة هادئة ، ولم يكن الاستقرار فى القاهرة وحدها وانما فى جميع انحاء القطر . اذ هـــدأت النفوس فى القـــاهرة ووقفت حركات الهياج فى الوجه البحرى ، وسكنت العاصفة فى الصعيد حتى أن مراد بك حاول خلال شهر أكتوبر أن يقـــوم بمناوشات فى المنطقة ما بين أسيوط وجرجـــا فهاجمه الجنرال ديزيه وقضى على قوته ففر الى الصحراء ، وبذلت انجلترا محاولة لاحتلال القصير فبعثت بارجتين حربيتين الى هنـــاك ، قامتا بقصف القلعة بالمدافـــع ، وحاولتا انزال الجنود الى الشاطىء تحت حماية المدافع ، ودارت معركة عنيفة كان قائد الفرنسيين فيها الجنرال دنزلو قائد حامية القصـــير ، واستطاع الفرنسيون القضـــاء على قوة الانجليز ممـــا اضطر هؤلاء الى الاقلاع بسفنهم الى عرض البحر .

وبذلك تكون الامور قد استقرت فى مصر فى بداية حكم كليبر ، مما منحه الفرصة ليعزز موقفه فى مصر وليوطد مركزه فلقد كان كليبر يخشى أمرين .. يخشى ثورة المصريين فى الداخل ، ويخشى بعد ذلك جهود تركيا ضد الفرنسيين ورغبتها فى بعث الجيوش لطردهم من مصر ولهذا قام كليبر بتقوية الاستحكامات والقـــلاع فى القاهرة وفى المناطق

المحيطة بها ، كما عمل على تزويد مخازن الجيش وتوسيع المستشفيات وتوفير الذخيرة اللازمة لقواته .

وبرغم كل الجهود التى بذلها كليبر لتقوية مركزه أو لاجتذاب قلوب المصريين اليه ، فانه لم يكن خافيا أن الشعب فى مصر قد ازداد ضيقا نتيجة لسوء الحالة الاقتصادية فى البلاد ، حتى أنه قيل ان نابليون حين غادر مصر لم يترك درهما واحدا فى الخزانة ولقد أحس كليبر بسوء الحالة الاقتصادية فى البلاد ، ومدى الضغط الاقتصادى الذى يعانيه الشعب ، ولهذا فانه كان يتوقع ثورة شعبية ، وهو يقول حين يصف مشاعر الشعب « ان مصر بالرغم من السكون الظاهرى الذى شملها لا تعتبر الا مذعنة لحكم القوة ، والشعب المصرى موزع الفكرة قلق على مصيره ، ولا يرى فينا مهما فعلنا الا أعداء أرضه وماله ، وقلبه متجه دائما الى الامل فى حدوث الانقلاب الذى يتوقعه» وفى هذا المعنى أيضا يقول المسيو بوسليج « ان الشعب المصرى يكرهنا وهيهات أن يحبنا - مع أننا نعامله بأحسن ما يمكن أن تعامل بلاد محتلة ... انهم يمقتون حكم المماليك ، ويرهبون نير الاستانة » ولا يحبون حكمها ، ولكنهم لا يطيقون حكمنا ولا يصبرون عليه الا بأمل التخلص منه » .

حدث فى عهد كليبر تطور فى العلاقات بين تركيا وفرنسا فتركيا كانت ترى أن فرنسا قد اغتصبت مصر من أملاكها ، وكانت تفكر بصفة مستمرة منذ وطئت أقدام الفرنسيين مصر فى استعادتها على أساس أنها جزء تابع للدولة العثمانية ، ولهذا اتجهت تركيا الى العنف لاستخلاص مصر من أيدى الفرنسيين ، ووقع فى عهد نابليون أول اشتباك بين الفرنسيين والاتراك فى موقعة « أبو قير » ، حيث استطاع نابليون أن يقضي على الحملة العثمانية قضاء تاما ، وأن ينزل بهم خسائر فادحة ، وأن يلقى القبض على مصطفى باشا قائد الجيش العثمانى ويأسره ، وقال كثير من المؤرخين ان هزيمة العثمانيين فى هذه الموقعة تشبه الكارثة ، فقد فقدوا ثمانية آلاف ما بين قتيل وجريح وغريق « عدا ثلاثة آلاف من الاسرى وعدد كبير من مدافع الجيش وذخائره .

وفى أواخر اكتوبر ١٧٩٩ أقبلت على شواطىء دمياط قوة بحرية عثمانية تتألف من ثلاث وخمسين سفينة تحمل سبعة آلاف من جنود الانكشارية بقيادة السيد على بك ، ومعها بارجة انجليزية تسمى تيجر ـ النمر ـ ، وعليها السير سدنى سميث قائد الاسطول البريطانى ، ونزلت القوات بالقرب من بوغاز دمياط فى مواجهة القوات الفرنسية بقيادة الجنرال فرديه ، ونشبت معركة كبيرة بين الفريقين انتصر فيها الفرنسيون انتصارا كبيرا وخسر العثمانيون ثلاثة آلاف من رجالهم فوق ثمانمائة أسير .

وبرغم هذا الانتصار الكبير الذى أحرزه الفرنسيون فى بداية عهد كليبر ، الا أن كليبر كان يسعى الى عقد صلح للانسحاب من مصر ،

فقد كان مقتنعا بضرورة انهاء حالة الحرب مع تركيا ، وعقد الصلح والجلاء عن مصر .

وحدث أن تقدمت قوات عثمانية بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا ضيا الى غزة تمهيدا للزحف على مصر ، وكانت فى ذات القوات وحدات الاسطول الانجليزى بقيادة سيدنى سميث تتحرك بين يافا والاسكندرية لمراقبة السواحل المصرية وبعث كليبر أسيره مصطفى باشا وقائد الحملة التركية فى معركة (أبو قير البرية) للمفاوضة على اساس جلاء الفرنسيين عن مصر .

وعلى ظهر البارجة الانجليزية تيجر بدأت المفاوضات التى اشترك فيها سيدنى سميث كمندوب عن انجلترا وحلفائها وباءت المفاوضات بالفشل ، وتركت القوات العثمانية داخل الاراضى المصرية ، وهنا بدأت محاولة أخرى للتفاهم انتهت بمعاهدة العريش (٢٤ من يناير ١٨٠٠) وأخذ كليبر يستعد لمغادرة البلاد الا أن انجلترا نقضت معاهدة العريش اذ أعلنت انها لا تقبل أى اتفاق مع الجيش الفرنسى الا اذا ألقى السلاح من يديه وسلم جميع الذخائر والاسلحة واعتبر الجنود اسرى حرب . وأعلنت انها لن تسمح لأية سفينة تقل جنودا فرنسية بالتحرك فى البحر الابيض حتى ولو كانت تحمل جواز مرور من احد الحلفاء وانها ستعتبر السفن غنيمة الحرب والجنود الذين فوقها أسرى حرب . ورفض كليبر رغبات انجلترا واستعد لخوض غمار معركة جديدة ، وكانت معركة عين شمس وانهزم فيها الجيش العثمانى هزيمة منكرة ، وتقهقر بغير نظام متكبدا خسائر فادحة .

وفى هذه الاثناء كانت الحامية الفرنسية فى القاهرة مؤلفة من ألفى مقاتل بقيادة الجنرال فردييه ، وكان كليبر يتوقع قيام ثورة شعبية فى القاهرة خلال اشتباكه مع القوات العثمانية ، ولهذا أمر فردييه بالمحافظة على المواصلات بين قصر النيل وقلعة الجبل . وقلعة قنطرة الليمون ، كما أصدر أوامره الى الجنرال زايونشك المرابط فى الجيزة بمعاونة فردييه اذا لزم الامر .

وفى أثناء معركة عين شمس انفصلت كتيبة عثمانية بقيادة نصوح باشا ودخلت القاهرة ، فوجد الاهالى فى هذه الكتيبة ما يشجع على استغلالها للثورة ضد الفرنسيين ، هذا فوق أن ناصف باشا انسحب بعد المعركة الى القاهرة وانضم الى الكتيبة وبعث برجاله يحرضون الاهالى على الثورة وقتال الفرنسيين ، فذهب بعضهم الى دمياط والبعض الآخر الى الصعيد ، وكانت نفوس المصريين متأهبة للثورة ولكنها كانت تنتظر الفرص لكى تثور ، ومن هنا بدأت حركات النضال الشعبى تظهر وتتجدد .

ووجد الجنرال كليبر نفسه أمام مشكلة جديدة كان لابد من اتخاذ خطوات حاسمة لمواجهتها ، وبعد انتصاره العظيم فى عين شمس أمر الجنرال راميون بالتحرك الى دمياط والجنرال بليار لمعاونة راميون ، كما انضم اليهما الجنرال لانوس .

ثورة القاهرة الثانية ...

شبت الثورة الشعبية فى القاهرة فى ٢٠ من مارس سنة ١٨٠٠ فى الوقت الذى كانت تدور فيه معركة عين شمس ، وكان من زعماء الثورة عمر مكرم واحمد المحروقى والشيخ الجوهرى ، وشبت الثورة فى بولاق ويصف الجبرتى نشوبها فيقول : « اما بولاق فانها قامت فى ساعة واحدة وتحزم الحاج مصطفى البشتيلى (وهو من اعيان بولاق) وأمثاله وهيجوا العامة وهيئوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا وصفحوا ، واول ما بدءوا به انهم ذهبوا الى وطاق الفرنسيين الذى تركوه بساحل البحر ، وعنده حرس منهم فقتلوا من أدركوه ونهبوا جميع ما به من خيام ومتاع ، ورجعوا الى البلد وفتحوا مخازن الغلال والودائع التى للفرنساوية ، واخذوا ما أحبوا منها وعملوا كرانك حوالى البلد ومتاريس » .

بدأت الثورة كما قلنا فى بولاق واتجه أهلها وقد حملوا السيوف والرماح والبنادق والعصى الى قلعة قنطرة الليمون ، ولكن حامية القلعة ردت هجومهم وفتحت عليهم نيران مدافعها ، فنظم الثوار صفوفهم وعادوا يهاجمون القلعة ، واستطاع الجنرال فرديه أن يبعث بمدد الى حامية القلعة وان يشتت الثوار .

وكانت ثورة بولاق بداية لاشتعال الثورة فى جميع أنحاء المدينة ، فقد بدأ الناس يشاهدون جماعة من المماليك كابراهيم بك ومحمد الألفى وحسن الجداوى ، ومعهم جماعة من الاتراك الفارين من ميدان القتال ، فظنوهم مقدمة لقوات العثمانيين التى انتصرت على الفرنسيين ، والتى تتقدم الى القاهرة ، فاشتعلت الثورة فى كل مكان بالمدينة ، والتقى عشرة آلاف ثائر فى ميدان الازبكية ، فواجههم الجنرال ديرانتو بنيران شديدة، وردهم وأقام متاريس من جذوع النخيل حول معسكر الازبكية .

وفى لحظات زاد عدد الثوار الى خمسين ألف وانضمت النساء والاطفال الى الثورة ، وكان لهم نداءات وصيحات تصم الآذان ، واجتاحت الثورة العاصمة كلها . وبدأ الثوار هجومهم على معسكر الازبكية وكان يعاونهم مدفعان عثمانيان وصلا خفية الى القاهرة . واستخدم الثوار كرات الموازين الحديدية بدلا من القنابل لعدم وجودها ، ونشب قتال عنيف بين الثوار والفرنسيين واستمر الى اليوم التالى (٢١ من مارس) وبدأ الفرنسيون يسلطون نيران مدفعية القلاع الى المدينة ، فتساقطت القنابل فوق الأحياء الثائرة ، ووقع الرعب فى الناس ، وحاول كثيرون الخروج من المدينة ، الا أن زعماء الثورة اغلقوا أبواب الخروج أمام الناس ، وأشعلوا روح الحماس ، فهاجم الثوار بيت محافظ المدينة مصطفى أغا وقتلوه .

واتسع نطاق الثورة ، وتعاونت جميع طبقات الشعب ، وفى هذه الاثناء وصلت الى القاهرة نجدة كبيرة بقيادة الجنرال « لاجرانج » وكانت هذه النجدة ذات معنويات عالية فى انتصار الفرنسيين فى معركة عين شمس ، واستطاعت هذه النجدة أن تصل الى الازبكية وأن ترفع

انحصار عنه وأن تنضم الى حاميتها ، مما جعل من العسير على الثوار دخول منطقة الازبكية .

وفى هذه الاثناء وصل الجنرال « فريان » الى المدينة وحاول ازالة المتاريس التى اقامها الثوار ، ولكنها كانت على جانب كبير من المناعة فاتجه الى وسيلة الاقناع ، فبعث برسل الى الناس يحدثهم حديثا هادئا ويوضح لهم ان الفرنسيين قد انتصروا فى عين شمس ، وأنهم لا يريدون أن يقضوا على الثورة بالعنف ، وانهم يميلون الى التفاهم ولكن الاهالى كانوا قد قرروا الاستمرار فى الثورة حتى يخرج الفرنسيون من مصر . وحتى يتولوا هم مقاليد الامور ، فقتلوا رسله ، وانشئوا معملا للبارود ، ومعملا لاصلاح الاسلحة والمدافع ، ومعملا لصنع القنابل وصب المدافع ، وجمعوا الحديد من المساجد والحوانيت ، وبدأ العمال يتطوعون للعمل فى هذه المعامل ، وأخذ الاهالى يجمعون القنابل الفرنسية التى كانت تسقط عليهم ولا تنفجر ليستعملوها من جديد لضرب الفرنسيين ، واتخذت الثورة صورة جديدة عنيفة وبذل كل مصرى كل ما يستطيع من جهد لنجاح الثورة ، ويقول فى ذلك الجبرتى « واحضروا ما يحتاجون اليه من الاخشاب وفروع الاشجار والحديد وجمعوا الى ذلك الحدادين والسباكين . وارباب الصنائع الذين يعرفون ذلك . فصار هذا كله يصنع ببيت القاضى والخان الذى بجانبه والرحبة التى عند بيت القاضى من جهة المشهد الحسينى » ، وقال « مارتان » ــ أحد مهندسى الحملة ــ فى كتابه « تاريخ الحملة الفرنسية على مصر » : « لقد قام سكان القاهرة بما لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل . فقد صنعوا البارود وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصناع وفعلوا ما يصعب تصديقه ذلك أنهم صنعوا المدافع » . وقال كليبر : « استخرج » الأعداء مدافع كانت مطمورة فى الارض وأنشئوا معامل للبارود ومصانع لصب المدافع وصب القنابل ، وأبدوا فى كل ناحية من النشاط ما أوحت به الحماسة والعصبية ... هذه هى بوجه عام حالة القاهرة عند قدومى اليها ، وانى لم أكن أتصورها فى هذه الدرجة من الخطورة » .

تعاون المصريون جميعا فى ثورتهم ، وتطوعوا لامداد الثورة بكل ما تحتاج اليه من زاد ونفقات ، كما بذل أهل الارياف والضواحى الكثير . وقدموا المعونات برضا ورغبة ، فقد كانوا يأتون للثوار باحتياجاتهم من السمن والجبن واللبن والغلة .

وحينما جاء كليبر الى القاهرة فى ٢٧ من مارس وجد الثورة مشتعلة فى كل مكان ، واحس بمدى المعونات المقدمة من الضواحى والبلاد المجاورة للقاهرة ، وشاهد بعينه حصون الثوار التى اقيمت فى بولاق ومصر الجديدة ، ووجد الوكالات والمخازن وقد تحولت الى قلاع يستخدمها الثوار ، واستطاعوا منها أن يجعلوا الملاحة فى النيل تحت رحمتهم ، وأخذ كليبر يدرس الموقف ويقدر الظروف ويضع خطته وانتهى الى أن اتخاذ القوة ومحاولة القضاء على الثورة بالحديد والنار قد لا يؤدى الى النتيجة المرجوة بالنسبة الى العوامل التالية :

١ ـ المتاريس منتشرة فى كل مكان ، وهى تحول دون حرية التحرك داخل المدينة .

٢ ـ الثوار مستبسلون فى المقاومة فى معاقلهم وهذا يحتاج الى عدد كبير من المهاجمين كما انه قد يؤدى الى فقد عدد كبير من الجنود .

٣ ـ قواته ما زالت مبعثرة ، فالجنرال « بليار » فى دمياط والجنرال « رينيه » فى الشرقية .

٤ ـ وجود نقص كبير فى الذخيرة التى نفد جزء كبير منها فى معركة عين شمس .

وفى ضوء هذه العوامل قرر كليبر أن يطيل الوقت أمام الثوار فكلما طال الوقت قلل ذلك من عزمهم ، وأضعف من شوكتهم وأعطى الفرصة لايجاد الفرقة بينهم ، هذا فوق أنه كان يأمل أن يعرف الثوار حقيقة نتيجة المعركة فى عين شمس ويدركوا أن الفرنسيين هم المنتصرون مما يضعف روحهم المعنوية ويبعث بالملل الى صفوفهم كما ان وقف حركة التجارة والاسواق سوف يؤدى الى تعرض المدينة لخطر المجاعة وهذا يدفع الأهالى الى السعى لانهاء الثورة .

اذا فكليبر أراد أن يستغل طول الوقت فى اضعاف حركة الثورة . وهو فى ذات الوقت أخذ يعد العدة ويرتب الامر ليقضى على الثورة . فاتجه الى تحصين القلاع واقامة الاستحكامات وتركيب المدافع واعداد مواد ملتهبة لاستخدامها فى حرق المدينة .

ورأى كليبر بحصافته وذكائه أن الثوار يتكونون من عناصر ثلاثة ... « مصريون ... وأتراك ... ومماليك » ... وأدرك أن هذه العناصر الثلاثة وان اتحدت فى محاربة عدو مشترك فانها تختلف فى مصالحها وتتباين فى أغراضها ، فالمصريون يريدون استقلالا وحرية ، والاتراك يريدون ان يجعلوا مصر جزءا من دولتهم الكبيرة ، وأن يعيدوها الى حظيرتهم ولاية من ولاياتها ، والمماليك يطمعون فى أن تعود اليهم السلطة فى البلاد كما كانت لهم قبل الحملة الفرنسية ، فاتجه كليبر لينفذ من خلال هذه الثغرة الى تفرقة العناصر الثلاثة وبدأ بزعماء الاتراك ففاوضهم فى وقف القتال ، وكان رسوله فى ذلك أسيره مصطفى باشا الذى كان كليبر يحسن معاملته ، واتصل مصطفى باشا بناصف باشا وفاوضه مع غيره من زعماء الاتراك ، وبذل جهدا فى مفاوضة المماليك أيضا ، وتم الاتفاق بينهم وبين الفرنسيين على القاء السلاح .

وفى هذه الاثناء كان مراد بك يسعى الى التفاهم مع كليبر الذى رأى فى محاولات تركيا فى العودة الى مصر خطرا عليه ، والتقى مراد بك بكليبر وتم التفاهم بينهما وعقدت بينهما معاهدة سميت بمعاهدة « كليبر ـ مراد » قبل فيها مراد بك أن يحكم الصعيد تحت حماية الحكومة الفرنسية ، وقد بالغ مراد بك فى الولاء للفرنسيين فبعد توقيع المعاهدة بعث الى معسكر الفرنسيين بالهدايا والمهمات والغلال والمؤن ، وسلمهم

العثمانيين اللاجئين اليه ، وطرد درويش باشا الذى كان قد عين واليا على الصعيد ، وسعى الى ضم المماليك الذين كانوا فى القاهرة الى صفوف الفرنسيين ، فلما اعيته الحيل أشار على كليبر باضرام النار فى القاهرة ، وارسل كما يقول « ريبو » عدة مراكب محملة مواد ملتهبة تكفى لحرق القاهرة ، وذكر « جالان » انه بعد الاتفاق مع مراد بك « أرسل لنا المؤن وسلم لنا العثمانيين اللاجئين الى معسكره . وسعى لدى اعوانه فى القاهرة لتسليم المدينة لكنه رأى ان مسعاه لم يؤد الى نتيجة سريعة فعرض علينا احراق المدينة وارسل لنا لهذا الفرض المراكب محملة احطابا .. » .

وبذلك أمن كليبر جانب مراد بك فى الصعيد واستطاع كليبر ان يخضع الوجه البحرى بأكمله فقد وصل الجنرال بليار الى دمياط ودارت بينه وبين العثمانيين الذين كانوا يعسكرون فى المدينة معركة عند قرية الشعراء ، فهزم العثمانيين ، واستولى بليار على دمياط وعزبة البرج وفرض غرامة حربيه على سكان المدينة ، ثم تقدم الى منوف وقضى على الثورة فيها ، كما استطاع الجنرال لانوس اخماد حركة الهياج التى ظهرت فى المحلة الكبرى وسمنود وطنطا ، وفرض كليبر غرامة على علماء طنطا لأنهم ساعدوا على قيام الثورة فى مدينتهم وفى الدلتا .

بعد ان استتب الامر لكليبر فى الوجه البحرى بقضائه على الثورات المختلفة وحالة الهياج التى ظهرت فى مختلف المناطق وبعد أن استتب له الامر فى الوجه القبلى باتفاقه مع مراد بك ، أصبحت القاهرة محاصرة مطوقة ، وحانت الفرصة لكليبر لكي يقضى على الثورة فيها ، فأصدر أوامره الى المدفعية لتصلى المدينة نارا حامية ، وتطلق قذائفها على المنازل التى لجأ اليها الثوار .

وفى ٣ من أبريل وصلت الى القاهرة فرقة الجنرال رينيه واحتلت المرتفعات التى تشرف على المدينة فيما بين قلعة قنطرة الليمون «كامان» وقلعة جامع الظاهر «سلكوسكى» .

وفى ليلة ٤ من أبريل تقرر شن هجوم عام على المدينة فأمر الجنرال كليبر بتقدم جميع الكتائب الفرنسية من باب الحديد وكوم أبو الريش وقنطرة الحاجب وبركة الرطل والحسينية وباب النصر ، كما أمر الجنرال رينيه باحتلال منطقة باب النصر وان يصوب منها مدافعه الى الجامع الازهر .

بدا الفرنسيون تقدمهم من باب الحديد ، واستطاع الثوار أن يقضوا على الكتيبة الاولى المتقدمة ، وأن يقتلوا ضابطها ، ثم تقدمت كتيبة أخرى وتمكنت من أن تقتلع المتاريس التى كان يتحصن وراءها الثوار ، فهربوا من مكانهم وطاردتهم القوة الفرنسية واقتحمت المنازل التى لجئوا اليها ، واشعلت النار فى المبانى التى كانت تعترض تقدمهم واشتد القتال بين الطرفين واستطاع الثوار أكثر من مرة أن يصدوا الفرنسيين ، ولكن هؤلاء تمكنوا أخيرا من السيطرة على الموقف ، واستمرت المناوشات من يوم ٥ من أبريل حتى يوم ١٠ منه .

وفى ١٢ من ابريل احس الجنرال كليبر أن منطقة «كوم أبو الريش» « فى الفجالة » تعتبر نقطة ارتكاز للثــوار ، فمنها يمكن للثــوار قطع المواصلات بين قلعة الظاهر وبين معسكر الفرنسيين فى الازبكية ، ولهذا كلف الجنرال رينيه احتلالها ، واستطاع الجنرال روبان أن يهاجم الثوار وأن يجليهم عنها ، ثم قامت قوة فرنسية أخرى بمهاجمة بركة الرطل « بالفجالة أيضا » واقتحمتها واشعلت فيها النار ، وحاول الثوار أكثر من مرة استعادة منطقة « كوم أبو الريش » ، ولكن الفرنسيين ردوهــم على أعقابهم .

وفى قطاع ميدان الازبكية كان الثوار يحتلون بعض المنازل وخاصة بيت فرقة الهندسة ، فضربه الفرنسيون بالمدافع ، ثم هاجموه تحت ستار من نيران المدفعية ، واحتلوه ، ثم استطاع الفرنسيون أن يحتلوا بيت السيد البكرى وبيت أحمد أغا شويكار وطردوا منهما الثوار .

وفى هذه الاثناء وصــل الجنرال بليار من دمياط وعســكر أمام بولاق واحاط الفرنســيون بها ومنعوا الدخــول اليها والخــروج منها واكثروا من قذفها بالمدافع ليلا ونهارا ، هذا فى الوقت الذى كسدت فيه الاسواق وقلت الاقوات وغلت الاسعار وفقدت الحبوب ، واشــتدت بالنــاس الكروب والمحن ، واستهدفت البــلاد لكوارث وويلات ، وبدا الناس يشعرون بالموقف الاليم الذى يعيشونه ، وبالحالة البشعة التى تحيط بهم وبدا العلماء يسعون من أجل حقن الدماء ، وبدأت مفاوضات الصلح بين الفرنسيين والثوار ، ويصف الجبرتى الحالة التى كانتعليها البلاد قبل البدء فى المفاوضات فيقول « وصل كليبر الى داره بالازبكية وأحاطت العسـاكر الفرنسـاوية بالمدينــة وبولاق من الخــارج ومنعوا الداخل من الدخول والخارج من الخروج ، وذلك بعد ثمانية أيام من ابتداء الحركة ، وقطعــوا الجالب على البــلدين ، وعند ذلك اشــتدت الحرب ، وعظم الكرب ، وأكثروا من الرمى المتتابع بالمكامل والمدافع ، وأوصلوا وقع القنابر والبنبات ، من اعالى التلول والقلعات ، خصوصا البنبات الكبار على الدوام والاستمرار اناء الليل وأطراف النهــار ، فى الغدو والبكور والاسحار ، وعدمت الاقوات ، وغلت أســعار المبيعات وعزت المأكولات ، وفقدت الحبوب والغلات ، ... واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحــرب وشدة البلاء والكرب ووقــوع القنابل على الدور والمساكن من القلاع ، والهدم والحرق وصراخ النساء من البيوت والصغار من الخوف والجزع والهلع ، مع القحط وفقد المآكل والمشارب ، وغلق الحوانيت والطوابين والمخابز ، ووقوف حال النــاس من البيع والشراء وتفليس الناس ... » .

بعث الجنرال كليبر يطلب وفدا من العلماء يكون الوســيط بينه وبين الثــوار ، فجاءه وفــد يتكون من الشرقاوى والمهــدى والسرسى والفيومى ، وعرض عليهم كليبر وقف القتال فى مقابل الامان والعفو عن أهل القاهرة ، على أن يخرج ناصف باشا وكل الجنــود العثمانيين من البلاد ، وأعلن العلماء خوفهم من أن ينتقم الفرنسيون كما فعلوا حين انتهت الثورة القاهرية الأولى فى عهد نابليون ، ولكن كليبر وعــد بعقد

صلح بين (الجانبين) ، وانه سيتمسك بهذا الصلح ، ولن يفكر في أى نوع من الانتقام ، ولما نقل العلماء رغبة كليبر وشروطه الى زعماء الثوار ، هاج هؤلاء عليهم وسبوهم ، وشتموهم ، وضربوهم كما يقول الجبرتى واتهموهم بانهم على حد قوله « ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وانهم اخذوا دراهم من الفرنسيس » .

اما العثمانيون فقد بعثوا الى كليبر يقولون له ان الجنود العثمانيين رفضوا الصلح وانهم مصممون على قتال الفرنسيين ، فاما ظفروا بهم واما ماتوا عن آخرهم » .

وهكذا فشلت المساعى وكما قال الجبرتى « تغلب الجهلاء على العقلاء وتطاول السفهاء على الرؤساء » ، وبدأ كليبر يخطو خطوات حاسمة ويتخذ اجراءات عنيفة ، ليقضى على الثورة .

وفى ١٤ من ابريل ١٨٠٠ انذر كليبر الثوار ، فاستهانوا بانذاره ، وفى فجر اليوم التالى بدأ الفرنسيون هجومهم على حى بولاق وبدأت مدفعيتهم تقذف الحى فى غير رحمة ، فتحطمت المتاريس الموجودة فى مدخل الحى ، ووجد الفرنسيون أمامهم ثغرة كبيرة ، فاندفعوا منها الى شوارع بولاق ، واشعلوا النيران فى البيوت ، فامتدت النيران من البيوت الى المخازن والمحلات ، فالتهمت ما بها من تجارة مخزونة ودمرت الحى بأكمله ، ومات كثير من العائلات تحت الانقاض وفى لهب النار ، وعاشت بولاق فى مأساة عنيفة على اثر النكبة الكبيرة التى حلت بها ، وصور الجبرتى روعة المأساة فى قوله « هجموا على بولاق من ناحية البحر « يقصد من ناحية النيل » ومن ناحية بوابة ابى العلا ، وقاتل أهل بولاق جهدهم ، ورموا بأنفسهم فى النيران حتى غلب الفرنسيس عليهم وحاصروهم من كل جهة ، وقتلوا منهم بالحرق والقتل ، وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما تشيب من هوله النواصى ، وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والازقة ، واحترقت الابنية والدور والقصور ، وهرب كثير من الناس ، واحاط الفرنسيس بالبلد واستولوا على الخانات والوكالات والودائع والبضائع ، وملكوا الدور وما بها من أمتعة ، والاموال والنساء والصبيان والبنات ، ومخازن الغلال والسكر والكتان والخبز والأبازير والارز والادهان والاصناف العطرية ، وما لا تسعه السطور ولا يحيط به كتاب ولا منشور ..» .

ورواية الجبرتى هذه تتفق مع رواية المسيو جالان الذى شاهد هذه الفترة الحالكة فى حياة بولاق فهو يقول « انذرت بولاق ، بالتسليم فرفض أهلها كل انذار ، وأجابوا باباء وكبرياء أنهم يتبعون مصير القاهرة ، وانهم اذا هوجموا فهم مدافعون عن أنفسهم حتى الموت ، واخذ الجنرال فريان يحاصر المدينة ، وبدأ يصب عليها من المدافع ضربا شديدا ، أملا منه فى اجبار الاهالى على التسليم ولكنهم أجابوا بضرب النار ، فأطلقت المدافع قنابلها على المتاريس ، وهجم الجنود على الاستحكامات ، فاقتحموا اكثرها ، وظل بعضها يقاوم واستبسل الاهلون فى الدفاع ولجئوا الى البيوت فاتخذوها حصونا يمتنعون بها ، فاضطرت الجنود الى الاستيلاء على كل بيت منها والتغلب عليها بقوة

الحديد والنار ، وبلغ القوم فى شدة الدفاع حدا لا مزيد بعده ، وفى هذا البلاء عرض العفو على الثوار فأبوه واستمر القتال ، فجعلنا المدينة ضراما ، واسلمناها للنهب ، وصار أهلها عرضة لبطش الجنود وتنكيلهم، فجرت الدماء انهارا فى الشوارع واشتملت النار أحياء بولاق من اقصاها الى أقصاها ، وعادت تلك المدينة العامرة الزاهرة هدفا للخراب وأكلتها اهوال الحرب وفظائعها » .

وعندما استسلم اهل بولاق بعد كل ما حصل بهم من الخراب والتدمير ، فرض عليهم الفرنسيون غرامة جسيمة بلغت ٢٠٠ الف ريال، فوق ٣٠٠ الف ريال تجبى عروضا من السكر والبن والزيوت وغيرها كما فرض عليهم أن يسلموا ما عندهم من المدافع والذخيرة والاخشاب، والفلال والشعير والارز والعدس والفول ، وأن يسلموا ٤٠٠ بندقية و ٢٠٠ طبنجة ، وقبض الفرنسيون على مصطفى البشتيلى رئيس الثوار وطلبوا من أتباعه أن يقتلوه ، فضرب بالعصى حتى مات .

نخرج مما حدث فى بولاق بالنتائج الآتية :

١ ـ اصرار الاهالى على مقاتلة الفرنسيين .

٢ ـ اشتراك الرجال والنساء والاطفال فى الحرب .

٣ ـ استنكر الاهالى اية محاولة للصلح مع الفرنسيين .

٤ ـ رفض الاهالى اى انذار وجه اليهم وأعلنوا انهم سيدافعون حتى الموت .

٥ ـ استبسل الاهالى فى الدفاع وبلغ دفاعهم حدا لا مزيد بعده .

٦ ـ لم يستسلم الاهالى الا بعد ان اصبحت بولاق خرابا وبعد أن جرت الدماء انهارا فى الشوارع واكلت النيران المدينة .

بعد هذه النكبة التى حلت ببولاق تملك المصريين نوع من الفزع ، فانتهز كليبر الفرصة وأمر بشن هجوم عام على مدينة القاهرة وفى ١٨ من ابريل بدأ الهجوم من جهة الناصرية وباب اللوق والمدابغ والفجالة وكوم ابو الريش وباب الشعرية .

١ ـ هاجم الكولونيل سيلى حى الناصرية وفشل فى احتلاله .

٢ ـ هاجم الجنرال دنزلو المدابغ وكان الاهالى قد حفروا خندقا عميقا وتحصنوا فى المنازل المحيطة به ، وأطلقوا منها نيران بنادقهم على الفرنسيين فانسحب وفشل فى احتلال المنطقة .

٣ ـ هاجم الجنرال فريان والجنرال بليار من ميدان الازبكية وجنرال رينيه من الفجالة ، وكوم ابى الريش وباب الشعرية ودار قتال عنيف فى هذه المناطق وكثر القتلى والجرحى من الجانبين ، وأصيب الجنرال بليار ، واستمر القتال أياما متتالية ، وكان الفرنسيون يوطدون مراكزهم ويضيقون على الثوار .

وبدأ القتـــال يأخذ صورة جديدة فقد ضعفت شـــدته واضناهم طول حالة الحـرب ، وهدت من روحهـم كثرة الفظائع والاهوال التى حاقت بهم ، وبدءوا يفكرون في الصلح .

اما الفرنسيون فقد اسرفوا فى ارتكاب الفظائع ، وارتكبوا وسائل وحشية كاضرام النار فى الاحياء الآهلة بالسكان وهدم البيوت المزدحمة بالعائلات ، حتى اصبحت المدينة على صورة تبعث الفزع وتثير الحـزن والأسى ، واحترقت أحياء كاملة فى المدينة ، كحى الازبكية والفوالة ، وبركة الرطل وباب البحر، وباب الشعرية، ويصف الجبرتى آثارالحريق فى حى الأزبكية فيقول « انهدم جميع ما هناك من الدور والمبانى العظيمة والقصور المطلة على البركة ، واحترقت جميع البيوت وكذلك خط الفوالة والرويعى ، وصارت كلها تلالا وخرائب كأنها لم تكن مغنى صبابات ولا مواطن انس ونزاهات» ، ويصف بركة الرطل وما حدث بها فيقول ... صـــارت كلها تلال وخـرائب وكيمان أتربة ... صـــارت كلها خرائب متهدمة محترقة تسكب عند مشاهدتها العبرات » .

ويصف المسيو جالان المأساة فيقـول « وقع الهجـوم العام على القاهرة ، وكان هولا هائلا شاملا جميع الجهات ، فصبت المدافع قنابلها على المدينة السائرة ، وظل اطلاق القنـــابل والرصاص متواصلا طـول الليل ، وشبت الحرائق فى جهات متعددة وأخذت النيران فى كل لحظة تلتهم المنازل بعضها اثر بعض » ويقـول فى موضع آخر « .. لقد لاحظت ان الحصار اضر بالقاهرة أكثر مما كنت اتصور ، فقد عم الخراب أحياء بأكملها ، وتمثل لنا شبحه المخيف فى الازبكية وأثرت فى نفسى صـورته المفزعة ، فليس فى الامكان أن نخطو خطوة الا على كثبان من الخـرائب والاتربة ، وكانت رائحة العفونة تنبعث من الرمم المدفونة تحت الهدم».

عندما بلغت الحالة بالمدينة هده الدرجة من الفظاعة والهـول ، استأنف علماء القاهـرة مـــساعاهم من أجـل انهاء الوضع القائم وبعد مشاورات بينهم وبين زعمـــــاء المماليك ، ندب اثنان هما عثمان أفندى وكيل الصدر الاعظم ، وعثمان بك الاشـــقر ، لمفاوضـــة كليبر فى وقف القتال ، وفى ٢١ من ابريل تم الاتفاق على أساس :

١ ــ جلاء جميع الجنود العثمانية والمماليك عن القاهرة على أن يتم الجلاء فى مدة ثلاثة ايام ، وأن يأخذوا معهم أسـلحتهم وأمتعتهم ما عدا المدافع .

٢ ــ يواصل هؤلاء الانسحاب والجلاء حتى حدود سورية .

٣ ــ اعلان العفو العام عن جميع أهالى القاهرة الذين اشتركوا فى الثورة .

٤ ــ لا يسمح لمصرى باللحاق بالجيش العثمانى .

ولقد استمرت ثورة القاهرة ثلاثة وثلاثين يوما ، وبتوقيع هـذا الاتفاق غادر الاتراك والمماليك البلاد ، وهاجر عدد كبير من السـكان المدينة وتفرقوا فى البلاد خوفا من انتقام كليبر ، وعادت السـلطة الى

الفرنسيين واستتب الامر لكليبر ، وبدأ يفكر فى ان يظل فى مصر بصفة دائمة وان يحكمها كمستعمرة فرنسية ، واستبعد نهائيا فكرة الانسحاب من مصر ، وكان اول ما فعله بعد انتهاء الثورة ، ان اقام عرضا عسكريا فى سهول القبة دعا اليه الاعيان ، ثم دخل الجيش الى المدينة واخترق شوارعها بين قصف مدافع القلاع ، ثم على حد قول الجبرتى « لما انقضى أمر الموكب نادوا بالزينة فزينت البلاد ثلاثة أيام مع السهر ووقود القناديل ليلا » ...

الانتقام من الثوار ...

كان من ضمن الاسس التى تم الاتفاق عليها بين كليبر ومفاوضيه ان أعلن كليبر العفو العام عن جميع اهالى القاهرة الذين اشتركوا فى الثورة ، الا أن كليبر بعد أن استتب الامر فى البلاد نقض عهده ، وبدأ ينكل للشعب الطعنات والضربات ، ويسىء معاملة الاهالى بما لا يتفق أبدا مع وعد العسكريين ، الذين يتميزون عن غيرهم بالتمسك بالرأى والاعتزاز به ..

١ ـ فأول عمل قام به كليبر بعد دخوله القاهرة اصداره أمرا بالاقتصاص من سكان القاهرة جميعهم ، واتخذ الاقتصاص صورة فرض غرامة جسيمة قدرها ١٢ مليون فرنك يقدم نصفها نقدا ونصفها عروضا ، كما فرض على سكان المدينة تقديم ٢٠ الف بندقية ، ١٠ آلاف سيف ، ٢٠ الف طبنجة ، فكان كليبر قاسيا غاية القسوة فى هذه الغرامة التى فرضها على شعب حل به الخراب والدمار نتيجة لاعمال العنف والتخريب والحرق والتدمير التى تعرض لها وتعرضت لها مدينته .

واتجه كليبر الى كبار الاعيان والعلماء فأمر بأن يكون نصيبهم من هذه الغرامة كبيرا ، فصادر أملاك السيد المحروقى كبير التجار ، وفرض على الشيخ السادات ١٥٠ ألف ريال ، والشيخ الصاوى ٥٠ ألفا ، والشيخ الجوهرى ٥٠ ألفا ، ولم يكتف بذلك بل امر باعتقال خمسة عشر رجلا من كبار اهل القاهرة كرهينة حتى تنفذ أوامره ولا شك فى ان هذه الغرامة تعتبر جسيمة فوق طاقة الشعب ، ولهذا فقد أنهكت مختلف الطبقات .

ومن عجب ان كليبر حين قابله أعيان المدينة اعتبر فرض الغرامة غير متعارض مع وعده لهم بالامان فقد قال لهم « حيث اننا أعطيناكم الامان فلا ننقض أماننا ولا نقتلكم وانما نأخذ منكم الأموال فالمطلوب منكم عشرة آلاف فرنك » .

وقد اسرف الفرنسيون فى ارهاق الاهالى واذلالهم ، واعتقلوا منهم الكثيرين لاكراههم على دفع الغرامة ، وفتشوا البيوت بحثا عن السلاح ، وافتنوا فى وسائل الارهاب وضروب القهر والنكال ، واشتد الضيق بالناس لكثرة ما لاقوه من الاهوال ، فاضطر كثيرون الى الهجرة .. باعوا متاعهم ، وتركوا ديارهم واموالهم فرارا من ظلم الظالمين واضطهاد الفرنسيين .

ومرت بالبلاد فترة أصيب اقتصادها بنكسة وكساد ، وظلت الأسواق مقفرة ، والحوانيت مقفلة ، والوكالات مغلقة والارزاق عاطلة .

وكان السيد محمد السادات هدفا للانتقام، فقد عامله الفرنسيون بقسوة واعتقلوه واهانوه ، وصادروا أمواله وباعوا أملاكه ، ليحصلوا من ثمنها على الغرامة التى فرضت عليه وكانت اكبر غرامة فرضت على فرد ما ، وأفرطوا عليه فى القسوة ، ولم يعملوا حسابا لمكانته ومنزلته ، وذكر الجبرتى ما لاقاه الشيخ السادات فقال « نزل الشيخ السادات وركب الى داره ، فذهب معه عشرة من العسكر وجلسوا على باب داره، فلما مضت حصة من الليل حضر عشرة من العسكر أيضا فأركبوه ، وطلعوا به الى القلعة وحبسوه فى مكان، فأرسل الى عثمان بك البرديسى وتداخل عليه فشفع فيه فقالوا له « أما القتل فلا نقتله لشفاعتك ، وأما المال فلا بد من دفعه ، ولا بد من حبسه وعقوبته حتى يدفعه وقبضوا على قواصه ثم حبسوه ، فى حاصل ينام على التراب ويتوسد بحجر وضربوه تلك الليلة » .

ولعل السبب الذى من أجله عومل السادات هذه المعاملة هو اتهامه بأنه يكره الفرنسيين وانه يحرض الناس ضدهم حتى أن نابليون قال فى مذكراته « ان السادات قد خص بغرامة فادحة ، وكان معروفا عنه كرهه للفرنسيين ، على انهم اسرفوا فى اهانته لدرجة أنهم نسوا مقامه المستمد من مولده فقد رفض أن يدفع الغرامة فاعتقل وسجن بالقلعة ، ولم يبال بالتهديد والوعيد ، فأمر كليبر بضربه بالعصى، وهكذا ضرب السادات واهينت السلالة النبوية ، فعم السخط رجال الشرع والعلماء والشعب .

وكانت هذه المعاملة على النقيض من معاملة نابليون للسادات عقب ثورة ١٧٩٨ ، فقد قابله بالعفو والتسامح مع قيام البينات عليه بأنه زعيم الثورة ، وقال المسيو جومار « ان الشيخ محمد السادات كانت له مكانة كبيرة فى البلاد خلال الحملة الفرنسية ، وكان يعرف كيف يثير عواطف الشعب ، والمعروف عنه أنه هو الذى أهاج ثورة القاهرة الاولى وحرض على الثانية ، على أنه دفع ثمنا غاليا لمكانته بين الشعب ، فقد فرض عليه القائد العام الجنرال كليبر بعد واقعة عين شمس غرامة فادحة ، وأسرف فى القسوة معه ، الى حد أن أمر بضربه بالعصى »

٢ ــ رأى كليبر أنه بعد أن انتصر على العثمانيين قد أصبح شبه حاكم مستقل فأخذ يحكم البلاد ، وينظم شئونها ، وينظم قبل كل شىء قواته ، ويدعم موقفه الحربى ، فأمر بانشاء قلاع جديدة ، تكون عدته وسلاحه اذا نشبت ثورة أخرى ، ثم امر باصلاح القلاع القديمة وترميمها .

٣ ــ بعد ان انهزمت تركيا فى موقعة « ابو قير » البرية اتجهت الى مفاوضة كليبر لتنفيذ معاهدة العريش الا أن كليبر وقد أحس أن مصر أصبحت ملكا له ، رفض مجرد الحديث فى الصلح ، وعندما علم أن هناك عدة بوارج من الاسطول العثمانى قد وصلت الى شواطىء

مصر بقيادة حسين قبطان باشا ، أصدر أوامره الى قومندانات ثغور الاسكندرية ورشيد ودمياط بعدم السماح لهذه القوة بالنزول الى البر ، كما عين قوة متنقلة من الجنود تقوم بمراقبة السواحل لتستطلع تحركات العثمانيين كذلك رفض دعوة الصلح التى تقدمت بها انجلترا، فقد بعث اليه سفير انجلترا فى الاستانة يعلمه قبول الحكومة الانجليزية لنصوص معاهدة العريش ، وأن الحكومة مستعدة للسماح للسفن بنقل الجنود الفرنسية بحرا .

٤ ـ اراد كليبر أن يوهن العلاقة القائمة بين الباب العالىوانجلترا وان يفسخ التحالف بينهما ، فأخذ يتودد الى تركيا لاقناعها بأنمساعى انجلترا لاخراج الفرنسيين من مصر ، انما تهدف الى احتلال انجلترا لمصر واحلال قواتها العسكرية مكان القوات العسكرية الفرنسية ، وبدأ فعلا كليبر يفاوض الباب العالى مباشرة بعد ان عرض رأيه هذا على قواده المقربين فاستجابوا له ووافقوا عليه ، الا أنه قتل فحيلدون مراده ورغبته .

حوادث الاعتداء على المسيحيين ..

كانت القيادة الشعبية فى ثورة القاهرة الاولى التى نشبت فىعهد نابليون مقصورة على العنصر المصرى وحده ، فتولت هذه القيادة ادارة الثورة وجمعت تحت لوائها جميع المصريين مسلمين وأقباطا اما حين شبت الثورة المصرية فى القاهرة فى عهد كليبر ، فقد كانت قيادة الثورة تجمع عناصر أخرى غير العنصر القومى كعنصر الاتراكوالمماليك، الذين كانوا بعيدين عن مركز القيادة فى الثورة الاولى .

ولقد ادى هذا الخلط فى تنوع العناصر فى القيادة الى حوادث مؤسفة ، فقد وقع اعتداء على المسيحيين الذين يسكنون القاهرة وشوهت هذه الاعتداءات الثورة ، وجعلتها هدفا للاستنكار والسخط، ولا شك فى أن هذه الاعتداءات تقع مسئوليتها على عنصرى الاتراك والمماليك فهم بشهادة الفرنسيين كانوا الآمرين بالاعتداء المحرضين عليه ، فالمسيو ميو وهو واحد من المعاصرين لهذه الثورة ، ذكر فى مذكراته أن كتائب الجنود العثمانيين بقيادة ناصف باشا هى التى ارتكبت حوادث الاعتداء على المسيحيين ، وذكر الجبرتى أن نصوحباشا كان هو الآمر بالاعتداء على المسيحيين ، وأن الذين ارتكبوا هذه المنكرات هم الحجازية والمغاربة .

مقتل كليبر ....

لقد ظن الجنرال كليبر وهو يفرض حالة الارهاب العنيف على مصر انه قد ملك البلاد ، وانها قد صارت فى قبضته ، ولكن ظنه هذا كان يخالف الحقيقية والواقع ، لان المصريين عاشوا فى عهده يتضرعون الى الله القوى القاهر أن يكون معهم وأن يقف بجانبهم وأن يؤيدهم بالقوة ، وأن يقضى على كليبر جزاء ما اقترفت يداه من أعمال التخريب والتدمير والهدم والقتل والتعذيب والتشريد والسحل ومصادرة

الاموال والاملاك ، وكأنما كانت السماء على موعد من دعوات المصريين ، فقد فوجىء الناس فى ١٤ من يونية ١٨٠٠ بخبر ينتشر بسرعة البرق ينبئهم بأن الحاكم الطاغية قد انتهى الى غير رجعة ، اذ لقى مصرعه على اثر طعنات أصابته فى القلب ، وجهها اليها شاب عربى من حلب يدعى سليمان الحلبى .

وسليمان الحلبى هذا جاء الى مصر واختبأ فى بيت كليبر وراء بئر عليها ساقية ، فلما اقترب كليبر من مكانه تقدم اليه متوسلا كأنما يطلب منه شيئا ، وفى لحظات خاطفة أخرج خنجرا وطعنه به فسقط مضرجا فى دمه ، وفر سليمان الا أن المسيو بروتان ــ وهو احد مهندسى الحملة وكان مرافقا لكليبر ــ اسرع وراءه وتماسك الاثنان فطعنه القاتل ست طعنات ، فسقط على الارض وهو يصيح على الحراس فى حين عاد القاتل الى كليبر ليجهز عليه ، فطعنه ثلاث طعنات نفذت احداها الى القلب ، واختفى القاتل بعد ذلك فى حديقة السراى ، والقى القبض عليه ، وشكلت محكمة عسكرية لمحاكمته برياسة الجنرال رينييه ، وحكمت عليه باحراق يده اليمنى ، ثم اعدامه على خازوق ، وترك جثته تأكلها الطير ، ونفذ فيه حكم الاعدام بعد أن دفنت جثة كليبر .

وبموت كليبر عاش الناس فى خوف وجزع ، فقد كانوا يخشون الانتقام الرهيب والتنكيل والتعذيب ، وخاصة أن الوطنيين لمحوا علامات الغضب والسخط والتحفز على وجوه الفرنسيين ، الذين تجمعوا فى ميدان الازبكية ، ينادون بالانتقام والاخذ بالثأر ، ويهددون باحراق المدينة ، واستولى الفزع على الناس ، فأقفلوا دكاكينهم وخلت الطرق من المارة ، وحبس كل نفسه فى بيته طلبا للنجاة ، وهاجر كثير من العلماء والاعيان الى الاقاليم ، وتبعتهم الجماهير ، حتى أن السلطات الفرنسية تدخلت ، وقد هالتها كثرة الجموع المهاجرة ، فأمرت بمنع انتقال الناس ، وأنذرت المهاجرين بنهب دورهم ومصادرة أموالهم اذا لم يعودوا الى القاهرة خلال خمسة عشر يوما .

وقد كان الازهر المكان الذى اتجهت اليه أنظار الفرنسيين على اثر مقتل كليبر ، فان القاتل خلال محاكمته اعترف بأنه كان يدرس فى الازهر ، ولهذا لم يقتنع الفرنسيون بأن علماء الازهر كانوا يجهلون نية القاتل قبل ارتكابه جريمته ، فلما انقضت محاكمة القاتل ، وتولى الجنرال مينو قيادة الفرنسيين ، اتجه الى الازهر ، وأخذ يخرب نواحيه بحجة التفتيش عن السلاح ، وكانت هذه الخطوة كافية لان يهجر طلبة العلم الازهر ، فنقلوا امتعتهم ونقلوا كتبهم وأخلوا اروقته ، وعندما رأى العلماء أن الازهر أصبح مكانا لتدخل الفرنسيين طلب أكثرهم اغلاقه وتوجه الشيخ الشرقاوى والمهدى والصاوى الى مينو وطلبوا منه اغلاق الجامع الازهر ، فوافق . وفى ٢١ من يونية ١٨٠٠ اتجه هؤلاء المشايخ الى الازهر فقفلوا أبوابه ، وهؤلاء كانوا بعيدى النظر ، فانهم خافوا أن يدس الفرنسيون من طلبة الازهر من يكون عميلا لهم ، ثم يحتجون بذلك ، وينجزون مايريدونه من العلماء والفقهاء ، وينالون منهم ، وهم بذلك يكونون قد اغلقوا باب الانتقام أمام الفرنسيين .

(٢)

فى عهد مينو

بعد مقتل كليبر عين مينو قائدا للحملة الفرنسية ، ومينو هذا هو احد الجنرالات فى الحملة الفرنسية ، كان ضعيف الشخصية يميل الى التملق والرياء والتظاهر بالاخلاص ، وكانت هذه هى وسيلته فى التقرب الى نابليون حين تألق نجمه فى سماء العبقرية والعظمة وأحس قادة الحملة الفرنسية بضعف شخصيته ، فلم ينل منهم الاحترام والتقدير ، وأدركوا جميعا أن نهاية الحملة ستكون على يديه حتى انه أثر عن الجنرال داماس قوله « ان قائدا مثل الجنرال مينو سيكون سببا فى ضـــياع الجيش الفرنسى »

ومن مظاهر ضعف شخصيته أنه أراد من مرءوسيه أن يعاملوه بذات الطريقة التى كان يتعامل هو بها مع رؤسائه ، ولهذا أحاط نفسه ببطانة من الاصدقاء والمحاسيب وأنعم عليهم بالرتب العالية ليكونوا تبعا له يتملقونه ويعظمونه ٠

وعرف عن مينو كرهه الشديد لكليبر ، وحقده عليـــه ويبدو أن كليبر كان يشك فى اخلاصه ، ولهذا استدعاه من الاسكندرية وعينـــه قومندانا للقاهرة ليكون تحت نظره ، فلا يخاطب نابليون فى فرنسا كما كان يفعل وهو فى الاســـــكندرية ، ويقال ان كليبر لو استشير فيمن يخلفه فى قيادة الحملة ، لما اختار مينو أبدا ، لأنه كان يحس بعجزه عن الاضطلاع بهذا المركز الخطير ، ومما يؤكد كراهية مينو لكليبر أنه لم يكن يحترم ذكراه ، وانه حين رزق من زوجته المصرية بذكر أسـماه سليمان وكان هذا الاسم يثير فى نفوس الفرنسيين الالم والحـــزن لانه يذكرهم بقاتل كليبر ، وأدت كراهيته لكليبر الى تخبطه فى معاملة الضباط والجنود الذين كانوا يميلون الى كليبر ويعتزون به ، مما أثار السخط والغضب عليه ، وبلغ النفور بينه وبين قادة الحملة حدا بعيدا ، حتى انه فكر فى ترحيلهم الى فرنسا ، ولكنهم رفضوا وبقوا فى مصر برغم ارادته ٠

محاولات التقرب الى المصريين ٠٠٠

كانت سياسة مينو منذ قدم مع الحملة الفرنسية مهادنة المصريين والتقرب اليهم ، ومما يؤكد ذلك أنه فكر فى التقرب الى الشعب لدرجة الاندماج فيه حينما كان يتولى منصب حاكم رشيد ، فأعلن اســـلامه وسمى نفسه عبد الله باشا مينو ٠ وقرر أن يتزوج من مصرية مسلمة من

رشيد ، وفى ٢ من مارس سنة١٧٩٩عقد زواجه على السيدة زبيدة كريمة السيد محمد البواب أحد الاعيان ٠

وعندما تولى مينو الامر فى مصر حاول ان يزيد التقرب بينه وبين المصريين ، فأمر فى أكتوبر ١٨٠٠ باعادة الديوان الذى كان قد أبطل بعد توقيع معـــاهدة العريش ، واحدث تعديلا فى نظامه فجعله مكونا من تسعة أعضاء كلهم من المسلمين ، بقصـــد كسب رضاء غالبية الشعب واستمالتهم اليه ، ومنح الديوان اختصاصات أكبر من اختصاصاته الاولى فجعله بمثابة محكمة استئناف لها حق نقض الاحكام التى يتبين خطؤها وجعله مجلسا استشاريا للحكومة يســـهر على تقرير العدالة ، وادارة المساجد والتكايا ، ومعـاهد التعليم ، وينفق على الحج ؛ ويتصل بالقائد العام ليعرض مطالب الاهالى ، كمـا جعل من اختصاصه انتخاب القضاة وترشيحهم لمناصبهم وعزلهم ٠

وقام مينو من أجل اجتذاب قلوب المصريين اليه بعـــدد كبير من المشروعات الاصلاحية ، فهو مثلا نفذ مشروع احصاء المواليد والوفيات وتحرير دفاتر الزواج ، ومسح الاطيان الزراعية ؛ وانشاء مصنع للجوخ وانشاء حديقة للنبات ، وغير ذلك من المشروعات التى كان يرى فيهـا ارضاء للمصريين ٠

ولكن مينو أخطأ الطريق الى قلوب المصريين ، فان مصريا واحدا لم ينس أن مينو كان من أشد الداعين الى اتخاذ مصر مستعمرة فرنسية ومن أجل هذا ناصبه المصريون العداء ، وكان كلما تقرب اليهم نفروا منه ٠

نفور المصريين من مينو ٠٠٠

وابتدأ مينو عهده بفرض ضرائب واتاوات فادحة مما أغضب القلوب عليه ، فهو مثلا قد فرض ضريبة قدرها ٤ مليـون فرنك على ملاك الدور ومستأجريها ، كما فرض مليون فرنك على التجـار وأرباب الصناعات والحرف ، ولقد صور الجنرال رينييه أثر هـــذه الضرائب الجـديدة فى الشعب فقال « لم يكادوا (يقصد المصريين) يعودون الى العمــل حتى باغتتهم الاتاوات الجديدة ، ففرضت عليهم ضرائب أوقعتهم فى الضيق ، فاضطر معظمهم الى اقفال دكاكينهم ، وترك الاشتغال بالتجارة ٠ »

ضج سكان العاصمة وضاقت بهم المسالك ، فبدءوا يفرون من وجه الظلم والظالمين وهنا أعلن مينو أن من لا يعود الى داره بعد اثنين وثلاثين يوما تنهب داره وتصـــادر أملاكه ، ويعتبر من المذنبين ، وقال الجبرتى « وتابعوا نهب الدور بأدنى شبه ، ولا شفيع تقبل شفاعته أو متكلم تسمع كلمته ، واحتجب سارى عسكر عن الناس ، وامتنع عن مقابلة المسلمين» ٠

وصودرت أموال الناس وبضائعهم ، ونهبت دورهم ، كمـــا أن المهندسين الفرنسيين أكثروا من الهدم والتخريب لاغراض حربية ، فهم أخذوا فى ترميم واستكمال بنـاء القلاع التى كانوا قد بدءوها فى أيام كليبر كما انهم أرادوا بناء سور حول المدينة لمنع قيام ثورة فيها ومن أجل هذا هدموا البيوت والعمارات وأخذوا أخشابها ، وأدوات البناء منها ،

كما هدموا بيوتا وأخذوا أخشابها لاستخدامها كوقود ، وهكذا عم الهدم والتدمير أحياء بأكملها كما حدث مثـــلا فى الحسينية والخروبى وبركة الفيل ، وامتد هدمهم الى الجوامع ، فهدموا مثلا جامع الجنبلاطية وجامع السبع سلاطين ، وجامع الشركسى ، والرويعى ، والبنهـــاوى وغيرها من الجوامع .

ثم أمعنوا فى الهدم والتخريب فهدموا مصاطب الحوانيت واقتلعوا أحجارها ، وعللوا ذلك بالرغبة فى توسيع الشوارع والأزقة ، فى حين كان غرضهم أصلا منع الناس من استغلالها كمتاريس فى حالة قيام ثورة ، ومن المصاطب التى هدموها مصاطب درب الجماميز ودرب سعادة وباب الخلق حتى باب الشعرية .

وأمعنوا فى مصادرة الاخشاب فقطعوا الاشجار والنخيل من الحدائق ، واستولوا على أخشاب المراكب والسفن ، ممـــا أدى الى صعوبة النقل بالنيل ، وارتفاع أجور الشـحن ، وارتفاع الاسعار ، واشتداد الضيــق بالناس .

يتضح اذن أن مينو لم يفكر فى التقرب الى الشعب ، وانمـا كان يعمل على توسيع الهوة بين الطرفين ، فقـــد قامت سياسته منذ اللحظة الأولى على ارهاق الاهالى وظلمهم ونهبهم ومصادرة أرزاقهم وهدم بيوتهم وتخريب ديارهم وممتلكاتهم . »

وأحس المصريون أن سيل المظالم فى عهد مينو فى ازدياد وطغيان .

نهاية الحملة ...

ولعل سياسة مينو ـ عندما نزلت القوات الانجليزية فى رشيد « وأبو قير » والاسكندرية والقوات التركية فى الصالحية وبلبيس ـ كانت من أهم العوامل التى أبعدت ما بين المصريين والفرنسيين فعندما علم مينو بأمر الحملتين تولاه الفزع ، وساد صفوف جنده الاضطراب ، وخشى قيام ثورة مصرية ضده ، ممــــا يزعزع كيانه ويحطم جبهته الداخلية ، ولم يحاول فى هذه الآونة أن يتقرب الى المصريين وانما أتى بأعمال أثارتهم عليه ، وجعلتهم يترقبون فرصة الخلاص ، فهو مثـــلا يستدعى أعضاء الديوان ويطلب منهم أن يقوموا بتوجيه البـــلاد الى الهدوء والسكينة ، واستبعد فكرة الثورة ، وحملهم مسئولية وقوع أية حركة فى العاصمة وفى غيرها .

ثم يشتد انزعاج الفرنسيين ، فيعتقلون السيد محمد السادات خوفا من اثارته الفتن فى البلاد ، واهاجة العامة ضدهم ، كمـا اعتقلوا حسن أغا ، وفى ١٢ من مارس سنة ١٨٠١ استدعى مينو أعضاء الديوان ورؤساء التجار ، وأعلنهم أنه كان ينوى اعتقالهم كرهائن لمنع وقوع الفتن فى البلاد ، وبعد فترة قصيرة القى الفرنسيون القبض على أربعة من أعضـاء الديوان هم الشيخ الشرقاى ، والشيخ المهدى ، والشيخ الصاوى والشيخ الفيومى ، وقبضوا أيضا على خمسة عشر من أعيان القاهرة ، ثم اعتقلوا

الشيخ محمد الامير بحجة أن ابنه يثير المصريين فى الوجه البحرى ضد الفرنسيين .

بدأ الاشتباك المسلح بين الانجليز والفرنسيين وخسر هؤلاء أول معركة لهم في كانوب ، وانفتح الطريق أمام الجيش الانجليزى للتوغل فى البلاد ، فتقدموا واحتلوا الرحمانية بعد معركة انتصروا فيها فى ٩ من مايو سنة ١٨٠١ .

وفى الوقت نفسه كان الجيش التركى بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا ضيا قد وصل الى بلبيس ، ثم تقدم الى القاهرة فى الوقت الذى تقدمت فيه القوات البريطانية اليها وأصبحت القاهرة محاصرة من قوات الانجليز على الشاطىء الأيسر من النيل وقوات العثمانيين على الشاطىء الايمن ، وأحس مينو بضعف مركزه وبقرب نهايته ، فبعث يطلب وقف القتال وفتح باب المفاوضة ، وقبلت القيادة الانجليزية العثمانية طلبه ووقعت اتفاقية الجلاء .

وبدأ الفرنسيون يستعدون لمغادرة البلاد ، وسعد المصريون بهذه الاخبار سعادة لا حد لها ، فهم بعد سنوات ثلاث يتخلصون من عهد الارهاب العنيف الذى عاشوا فيه منذ وطئت الحملة الفرنسية بأقدامها الدنسة أرض البلاد ، وخرج الناس من بيوتهم فرحين مستبشرين وأطلق سراح المشايخ والأعيان وباقى المعتقلين ، وعمت البلاد موجة من الفرح والابتهاج ..

وأخذت السفن الفرنسية تقلع من الاسكندرية خلال شهر سبتمبر سنة ١٨٠١ ، وفى ١٨ من أكتوبر تم جلاء الفرنسيين جميعا عن البلاد المصرية وطويت صحيفة الاحتلال الفرنسى فى مصر .

وانتهت بذلك مرحلة من مراحل الكفاح الشعبى فى مصر ضد المستعمرين الذين أرادوا أن يعبثوا بحريته ، وأن يستهينوا بأبطاله وأن يستذلوا رجاله ، وأن يمتهنوا كرامته ، ونسوا أن للشعب فى التاريخ حظا موفورا من الجهاد المجيد والبطولة الخالدة .

(انتهى)

فهرس

هيئة قناة السويس

الحمولة الصافية

زادت الحمولة الصافية للسفن التى عبرت القنـــة خلال الشهر الحـالى عن مثيـلاتها فى سبتمبر ١٩٦١ بمقـدار ٢٤٠٤٠٠٠ طن أى بنسبة ١٥,٩٪ (١٧٤٨٦٠٠٠ طن خلال شهر سبتمبر ١٩٦٢ مقابل ١٥٠٨٢٠٠٠ طن فى سبتمبر من العام الماضى) ٠

وقد تطور المتوسط اليومى للحمولة الصافية خلال ثلاثة الأشهر الأخيرة من ٥٢٩٠٠٠ طن فى يولية ١٩٦٢ الى ٥٥٣٠٠٠ طن فى أغسطس حتى وصـل الى ٥٨٣٠٠٠ طن فى سبتمبر من العام الحالى ، بينما كان هـذا المتوسط ٥٠٣٠٠٠ طن فى سبتمبر ١٩٦١ ٠ وبلغ متوسط الحمولة الصـافية للسفينة خلال الشهر الحالى ١١٠٨١ طنا مقابل ١٠٧١٢ طنا فى سبتمبر سنة ١٩٦١ ٠

وترجع الزيادة فى الحمولة الصافية الى السفن العابرة فى كلا الاتجاهين ٠ فقد زادت الحمولة الصافية للسفن المتجهـــة جنـوبا بمقــدار ١٢٠٧٠٠٠ طن أى بنســبة ١٥,٨٪ (٨٨٥٨٠٠٠ طن مقابل ٧٦٥١٠٠٠ طن) بينما زادت الحمولة الصافية للسـفن المتجهة شمالا بمقـدار ١١٩٧٠٠٠ طن أى بنسـبة ١٦٪ (٨٦٢٨٠٠٠ طن مقابل ٧٤٣١٠٠٠ طن)

ويمكن تقسيم الزيادة المسجلة فى الحمولة الصـــافية بين السفن المحملة والفارغة والحربية كالآتى :

السفن المحملة	+ ١ ٤٨٨ ٠٠٠ طن
السفن الفارغة	+ ٨٩٦ ٠٠٠ طن
السفن الحربية	+ ٢٠ ٠٠٠ طن
المجمـــــوع	+ ٢ ٤٠٤ ٠٠٠ طن

تحليل حركة الملاحة فى القناة

خلال شهر سبتمبر سنة ١٩٦٢

الحركة الملاحية :

سجلت الحركة الملاحية خلال شهر سبتمبر ١٩٦٢ أرقاما قياسية جديدة ، اذ عبرت القنـــاة خلال هذا الشهر ١٥٧٨ سفينة مجموع حمولتها الصافية ١٧٤٨٥٧٥٢ طنا متوسط يومى قدره ٥٢,٦ مقابل ١٤٠٨ سفينة حمولتها الصافية ١٥٠٨٢١٩٧ طنا بمتوســـــط يومى قـــــدره ٤٦٩ من السفينة فى سبتمبر ١٩٦١ .

وبمقارنة أرقام الشهر الحالى بمثيلتها فى سبتمبر ١٩٦١ يلاحظ أن عدد السفن قد زاد بنسبة ١٢,١٪ . وزادت الحمولة الصافية بنسبة ١٥,٩٪ والايرادات بنسبة ١٦,١٪ وبالمقارنة بأرقام أغسطس ١٩٦٢ يتضح أن المتوسط اليومى لعـــدد السفن قد زادمن ٥٠,٦ من السفينة الى ٥٢,٦ من السفينة. وأصبح المتوسط اليومى للحمولة الصافية ٥٨٣٠٠٠ مقابل ٥٥٣٠٠٠ طن .

وقد عبرت القناة من الشمال الى الجنوب ٧٩٤ سفينة خلال الشهر الحـالى مقابل ٧١٠ سفينة فى سبتمبر سنة ١٩٦١ بزيادة قدرها ٨٤ سفينة منها ٤٥ سفينة فارغة (٤١٢ مقابل ٣٦٧) و ٣٩ سفينة محملة (٣٨٢ مقابل ٣٤٣) .

أما السفن العابرة من الجنوب فقد زادت بمقدار ٨٦ سفينة (٧٨٤ مقابل ٦٩٨) منها ٨٢ سفينة محملة (٧٣٦ مقـابل ٦٥٤) و ٤ سفن فارغة (٤٨ مقابل ٤٤) .

مطابع الدار القومية للطباعة والنشر





الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

العــدد ١٨١ الثمن ١١ قرش